حكاية لكل امرأة وبنت

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة

٢٧ ش أثر النبي – مصر القديمة – القاهرة

٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ – ٠١٢٢٢٦٤٠٦٤٨٩

البريد الالكتروني yuness2005@hotmail.com

محمد يونس هاشم

حكاية لكل امرأة وبنت

رواية واقعية

١٢٧ ش أثر النبي – مصر القديمة ـ القاهرة
ت: ٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ - ٠١٢٢٩٠٦٩٣٤٨

هاشم ، محمد يونس هاشم

حكاية لكل امرأة وبنت : رواية واقعية / محمد يونس هاشم :-

القاهرة: دار زهور المعرفة والبركة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٩

ص : ٢٦٢ ، ١٤× ٢١ سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٧٢٨٧٧

١- القصص العربية الواقعية .

أ- العنوان

٨١٣.٠٨٣

رقم الإيداع ١٤٣٨٤ التاريخ ٢٠١٩/٧/٢٤

١

كانت الساعة تقترب من التاسعة عندما كانت نهى تدخل البيت، وعندما رأتْ أمها حاولت أن تخفي ابتسامتها .

بادرتها حنان قائلة : لماذا تأخَّرت يا نهى ؟

- لم أتأخَّر يا ماما .

- الدرس ينتهي الساعة السابعة والنصف .

- كان درس اليوم صعباً وتأخَّر الأستاذ في شرحه ، وبعد الدرس طلبتُ منه أن يشرح لي شيئاً لم أفهمه .

- غيِّري ملابسك حتى أجهِّز لك الأكل ...

- أنا لا أريد أن آكل أنا أريد نسكافيه .

- لا .. لا .. كفَى نسكافيه اليوم .. سأعمل لك شاياً .. غيِّري ملابسك بسرعة ، وابدئي مذاكرة .. الامتحان اقترب .. لم يَعد هناك وقت .. وعليك واجبات كثيرة .

- حاضـر يـا مامـا .. لكـن مـن فـضلك اتركينــي نـصف سـاعة أستريح فيها .

- نصف ساعة فقط .

دخلت نهى حجرتها ، وقفت أمام المرآة تتأمل وجهها وملابسها.

وقالت في نفسها : (ليتني كنت لبست ملابس جديد اليوم .. لو كنت أعرف أنني سأقابله كنت لبست الفستان الأحمر ، والطرحة الوردي).

ثم بدأت تستعيد ما حدث وهي تبتسم .

جاء صوت الأم من خارج الحجرة : أتريدين الشاي سادة أم بلبن؟

فزعت عندما سمعت صوت أمها وقالت : سادة .. بلبن .. أي حاجة ؟ .. أي حاجة ؟

- (لم أره منذ أكثر من سنتين ، وكدت أنساه .. لا .. لا .. أحياناً كنت أفكر فيه وأتمنَّى أن أراه .. لم أتوقع أن أراه اليوم .. لقد تغيَّر بعض الشيء .. أصبح رجلاً .. كان يبدو عليه الاضطراب وهو يتكلَّم معي .. هل جاء ليراني ؟ أم أنها صدفة غير مقصودة ؟ .. الذي أنا متأكِّدة منه أنه كان سعيداً برؤيتي .. في البداية كان يبدو خائفاً ألا أتذكَّره .. أنا أيضاً كنت مضطربة .. لا أدري ماذا أقول ....)

– أمـا زلـت تلبـسين ملابـس الخـروج ؟!! .. هيـا غيِّـري ملابـسك بسرعة.

– نصف الساعة لم تنته ! من فضلك يا أمي ...

خرجت الأم لتردَّ على التليفون .

– (هل أُخْبِر أمي بما حدث ؟ .. لا .. ليس الآن .. ماذا أقول لها ؟ تامر لم يقل شيئاً .. مجرد كلام عادي .. لكن نظراته تقول شيئاً آخر .. أعتقد إنـه سيكرر هذه اللقـاءات بعد ذلـك .. فمـاذا أفعل ؟ ومـاذا أقول لـه لـو صرَّح لـي ... ؟ لا بد أن أقول لأمـي .. أمي سترفض ككل الأمهات ، وربمـا ضيَّقت علـيَّ في الخـروج كما فعلت أم ريهام عندما علمت بعلاقتها بحـاتم .. والطامـة الكبرى إذا أخبرت أبي .. ماذا أفعل ؟ ...) .

– نـهى .. نـهى .

– نعم يا ماما .

– أنـا عملـت لـك الشـاي ، وأنـت لـم تغيِّـري مـلابسك !! مـاذا كنـت تعملين ؟ تكلمي .

– لا شيء .. لا شيء .. أنا فقط متعبة .

– مـاذا حـدث ؟ قـول لـي الحقيقة .. أنـا متأكدة أن شيئاً قد حدث .. هل تُخْفين عنـي شيئاً ؟ .. ألـم نتفق علـى أن تحكـي لـي كـلَّ شيء ؟ .. أنا أمك .. قولي ولا تخافي من شيء .

احمـرَّ وجـه نهـى وغـضَّت طرفهـا وقالـت بـصوت هـامس : لـم يحدث شيء .. موضوع عادي .

- ما هو ؟

- أنت تعرفين تامر ؟

- تامر .. تامر مَنْ ؟

- تامر الذي كان يأخذ معي درس التاريخ في إعدادي .

- ما له ؟

- أبداً .. رأيته اليوم ...

- وماذا بعد ؟

- أبداً .. كلام عادي .. عن الدراسة ...

- أين قابلتيه ؟

- بالقرب من مكان الدرس .

- وماذا قال لك ؟

- أبداً .. كيف حالك ؟ وسألني عن المواد وصعوبتها ؟

- كم ساعة استمرَّ هذا اللقاء ؟

- كم ساعة ماذا يا ماما ؟!! لم يكمل دقيقة ...

– هذه أول مرَّة يكلِّمك فيها ؟

– نعم .. أنا لم أره منذ الإعدادية تقريباً .

– وماذا تنوين أن تفعلي بعد ذلك ؟

– في ماذا ؟

– لو قابلك مرة ثانية .

– عادي .

– طبعاً أعطيتيه رقم تليفونك ؟!

– لا .. لم يطلبه مني .

– ولو طلبه ؟

– لا أدري .

– لـو كلَّمـك مـرة ثانيـة لا تـردِّي عليـه .. هـل تريـدين أن تكـررِّي مصيبة أختك ؟ .. أم أقول لأخيك وهو يتصرَّف ؟

– محمد يحب شيرين زميلته ، وأنت تعرفين !!

– أنت صغيرة .. محمد في آخر سنة في الكلية ، وكلَّمني وكلم أباك في هذا الموضوع واتفقنا أن يخطبها بعد أن يتخرَّج .

قالت نهى وهي تضحك : محمد كان يكلِّم شيرين من سنة أولى...

قالـت حنـان بغضـب : نهـى .. كَفَـي قِلـة أدب ، وقـومي ذاكـري دروسك .. وهذه آخر مرة تتكلَّمين في هذا الموضوع .. ولو علمت أنك كلمتيه يا نهى أنت تعرفين ماذا سيحدث لك .

– أنا أمزح معك يا ماما .. لا تغضبي ..

قامت نهى وحضنت أمها وهي تقول : أما زلت غاضبة مني؟ .. أنا آسفة أني حكيت لك .

– وهل كنت تنوين أن تخفي عني هذا الموضوع ؟

– الموضوع لا يستحق هذا كله .. الموضوع عادي جداً.

قامت نهى لتذاكر وبقيت حنان في مكانها .. ما زال الدم يغلي في عروقها (نحن لم نكد ننتهي من مصيبة سها حتى تظهر لنا نهى أيضاً ؟ .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. هل كُتِبَ عليَّ أن أتحمَّل وحدي كل هذه المصائب ؟ .. استغفر الله العظيم .. استغفر الله العظيم ...)

– السلام عليكم يا أمي .

– وعليكم السلام يا محمد .. أين كنت ؟

قال وهو يبتسم : قلت لك ألف مرة أنني لم أعد صغيراً، ومع ذلك كلما عدت إلى البيت تسأليني هذا السؤال .. أبي نفسه لا يسألني أين كنت .

– وأين هو أبوك ؟

– أقصد في اليومين اللذين نراه فيهما .

– أبوك يكفيه عمله وتعبه فيه ، والبيت مسئوليتي أنا .. أليس من حقي أن أسألك ؟ أنا أمك يا ولد .. أنسيت ؟!

حضن محمد أمه وقبَّل رأسها وهو يقول : أنت أحسن أم في الدنيا ، أنا لا أريدك أن تحملي همِّي ، يكفيك الهانم التي في الثانوية العامة .

– اطمئن على أختك .. نهى متفوِّقة طول عمرها ، وهي تذاكر وتعمل ما عليها وإن شاء الله ستحصل على مجموع أكبر من مجموعك وتدخل كلية أحسن من كليتك .

– نهى !! سوف نرى .. سوف تخرج الآن وتقول من الذي يذكر اسم نهى .

– اطمئن هي مشغولة بالمذاكرة وليس لديها وقت للمشاجرة معك.

– بعد إذنك يا أمي جهِّزي لي الغداء فأنا جائع جداً ، لم آكل شيئا منذ الصباح .

– وفيم تنفق مصروفك إذن ؟ طبعاً على حبيبة القلب !

– ماما لو سمحت ، أنا لا أحب أن أسمع هذا الكلام .

ذهبت حنان لتسأل نهى هل ستأكل مع أخيها ، وعندما فتحت الباب وجدت النور مطفأً ، ونهى نائمة على السرير وسماعة التليفون في أذنيها .

صاحت حنان : ماذا تفعلين ؟! .. أمن ساعة دخولك وأنت على هذا الوضع ولم تذاكري شيئاً ؟!

نهضت نهى من السرير ونزعت السماعة من أذنها وأضاءت النور وقالت بخوف : لا .. يا ماما والله .. أنا ذاكرت ، ثم استرحت قليلاً .

- حسابي معك فيما بعد .. هل ستأكلين مع أخيك ؟

- لا .. أنا سوف آكل بعد ذلك .

- أنت لم تأكلي شيئاً من العصر ؟!

- كُلي أنت ومحمد ونامي ، وأنا سآكل عندما أجوع .

نظرت حنان إليها بغضب ثم خرجت ، وقالت وهي تفتح الباب على آخره : لا تطفئي النور ولا تغلقي الباب مرة ثانية .

دخلت حنان المطبخ وأخذت تُعِدُّ الطعام (أنا خائفة أن موضوع تامر هذا يشغل نهى عن مذاكرتها ، نهى عاطفية مثلي ، وهذه الأمور يمكن أن تؤثِّر على مذاكرتها ، وأنا أريد أن تدخل كلية الهندسة وأطمئن عليها .. لا أدري ماذا أصنع؟! .. تعبت حقاً .. والبيه واضع يده في الماء البارد من سنين ...)

- الأكل يا ماما .. بسرعة .

- حاضر يا حبيبي .. هل غيَّرت ملابسك، وتوضأت وصليت؟

- من زمان .. هيَّا بسرعة .

بعد أن أكل محمد دخل حجرته وأغلقها عليه ، وبدأ يتكلَّم في التليفون .

أما حنان فدخلت لتطمئن على نهى ، فوجدتها جالسة إلى مكتبها وفي يدها كتاب تنظر فيه دون أن تقلب صفحاته والشاي الذي أمامها لم تمسه منذ وُضع .

- نهى .. نهى .

- ماذا حدث يا ماما .. فزعتيني .

- ما لك اليوم ؟ .. منذ رجعت من الدرس وأنت لست طبيعية.. شاردة العقل .. ما بك ؟

- لا شيء يا أمي .. لا شيء لا تنزعجي .

قالت حنان بعد أن خفضت صوتها : أما زلت تفكرين في موضوع تامر ؟

- لا .. لا .. تامر ماذا ؟ .. أنا فقط متعبة .. وعندما أستريح بعض الوقت سأكون أحسن إن شاء الله .

قالت حنان بغضب مكتوم : على راحتك يا نهى .. على راحتك .. تذاكرين أو لا تذاكرين .. على راحتك .

جلست حنان أمام التليفزيون (أنا خائفة على نهى .. لم يبق إلا ٦٥ يوماً فقط على الامتحان .. أنا خائفة أن يؤثر عليها موضوع تامر .. نهى عاطفية جداً مثلي .. ومثل هذه الموضوعات يمكن أن تــؤثر علـــى مــذاكرتها .. لا أدري مـــاذا أفعــل؟ .. تعبــت .. تعبت.. والبيه كأنه غير موجود.

***

٢

قـال هـشام بتـأفُّف قبـل أن ينـام : هـل حـدث شـيء؟ .. أراك متغيِّرة.. خير .

قالت حنان : وهل يهمك حالي ؟ أو حال الأولاد ؟

– أنا الآن متعب من العمل والسفر .. أجِّلي أي موضوع للغد.. أنا أريد أن أنام .

– كلُّ مرَّة تقول هذا ، وتسافر دون أن تحلَّ أي مشكلة .. أنا تعبت يا هشام .. تعبت جداً .. وأنت ...

– أخخخخخ .

– (ماذا أعمل يا رب .. لمن أشتكي ؟ .. شكوت لأمي فقالت لي : كلُّ الرجال هكذا ..)

نهضت حنـان ، ولبـست " الـروب " وخرجـت .. وجـدت نهـى نائمة، ومحمد جالس في البلكونة .

جلـست فـي الـصالة أمـام التليفزيـون .. بحثـت فـي القنـوات الفـضائية حتـى اسـتقرَّت علـى فـيلم قـديم لإسـماعيل يـس كانـت تـضحك عليـه كثيـراً وهـي صـغيرة ، ولكـن منـذ سـنوات لا تعـرف عـددها لـم تعـد تـضحك علـى هـذه الأفـلام ، ولا تحـب مـشاهدة غيرها.. (هل أشاهد الأفلام الرومانسية التي تجعلني أتحسَّر على حياتي؟! أم أشاهد أفلام الميلودراما التـي تزيد همومي وأحزانـي ؟!) لا تجد إلا الأفلام والمسرحيات الكوميدية لعلها تنسيها هموم الزوج والأولاد ؛ لأنهـا لـم تـدخل بعـد عـالم "الإنترنـت" و "الفـيس بـوك" وتتعجب من تضييع أولادها الساعات الطوال فيه (ما الذي يجعلهم ينسون أنفسهم أمامه ، ويقضون الساعات الطوال دون ملل .. في الإجازة سأجعل نهى تعلِّمني "الفيس بوك" هذا ربما أجد فيه تسلية عن الهم الذي أنا فيه) .

بعـد أن قلَّبـت حنـان فـي قنـوات التليفزيـون أغلقتـه ، ودخلـت حجرتهـا .. همَّـت أن تـضيء النـور ولكنهـا تراجعـت .. تـسللت ورقدت إلى جوار زوجها الذي لم يحس بها .

***

٣

عندما عادت نهى من الدرس ودخلت حجرتها فوجئت بأمها تسألها: هل رأيته اليوم ؟

– رأيت مَنْ ؟

– تامر .. وهل هناك أحد غيره ؟ .. أكيد قابلتيه ، لقد اتفقتما المرة السابقة على اللقاء ، لذا لَبِسْتِي له لبسك الجديد .. ووضعتي كحل ، وأحمر شفاه .. ألم أنهك عن هذه الأشياء مائة مرة ؟!

– هذا ليس أحمر شفاه إنه زبدة كاكاو حمراء .

– ما الفرق ؟ إنه كأحمر الشفاه بالضبط .. هل هي مسألة تغيير أسماء فقط ؟

قالت نهى وهي تضحك : الفرق بينهما كبير جداً يا ماما زبدة الكاكاو ....

– نهى .. لا تغيري الموضوع .

– موضوع ماذا يا ماما ؟

– هل قابلت تامر اليوم ؟

– .....

هدَّأت حنان من روعها وقالت برفق : قولي لي الحقيقة يا نهى.. لا تكذبي عليَّ .

– وجدته ينتظرني في نفس مكان الأسبوع الماضي.

– وماذا فعلتِ ؟

– أبداً حاول أن يتكلَّم معي ...

– ماذا قال لك ؟

– سألني عن الدراسة ...

– وماذا قلتِ له ؟

– رددت عليه باختصار ...

– وماذا بعد ؟

– استأذنت ورجعت إلى البيت .. ألم أَعُد في موعدي اليوم ؟

ضمت حنان نهى إلى صدرها وقبَّلتها ، وقالت لها : ليس لديك يا حبيبتي وقت لهذا الكلام الفارغ .. الامتحانات على الأبواب .. عديني يا نهى أنك لن تكلميه مرة ثانية إذا حاول أن يكلِّمك .. عديني .

– إن شاء الله يا أمي .

- غيِّري ملابسك إلى أن أجهِّز لك الأكل .
- لا أريد أن آكل .. اعملي لي نسكافيه .
- سأعمل لك شاياً ..
- أنا قلت : نسكافيه .. لأن النسكافيه يجعلني أكثر تركيزاً وأنا اليوم أريد أن ....
- كَفَي لَغْواً وغيِّري ملابسك .. وذاكري .

دخلت حنان المطبخ تصنع الشاي لنهى .

(ترى هل نهى تحب تامراً وتفكر فيه ؟ أنا لا أريد أن أشدِّد عليها في هذا الموضوع حتى لا تخفي الموضوع عنِّي أو تكذب عليَّ كما فعلت سها .. لا أدري ماذا أفعل .. هل أقول لهشام ؟.. سيثور ويغضب ويضرب ويتهمني أني السبب ، وأني أهملت تربية البنت .. هشام لن يحل المشكلة بل سيزيدها ، وبالطبع لا أستطيع أن أخبر محمداً فسيكون رد فعله أشد من أبيه .. لقد كاد يقتل سها وخالداً عندما علم .. لماذا أنا وحدي عليَّ أن أتحمَّل كلَّ شيء ؟ .. الأكل والشرب .. والغسيل والتنظيف .. ومشاكل الأولاد ؟! ...)

اغرورقت عيناها بالدموع (من أحببته تخلى عنِّي ، وأساء إليَّ.. ومن تزوجته أهملني وانشغل بعمله وأصدقائه .. ورغم محاولاتي ، وتدخلات الأهل والمعارف لم يغيِّر حياته ...) .

سالت الدموع من عينيها بل توقَّفت عن إعداد الطعام وأجهشت بالبكاء ، ومع ذلك لم يسمعها أحد .

❋ ❋ ❋

٤

قلِّبت في قنوات التلفزيون توقَّفت عند فيلم " حبيبي دائماً " (أنا أحب هذا الفيلم كثيراً .. إنه يذكِّرني بأحمد .. أوَّل مرَّة شاهدت هذا الفيلم كنت في الصف الثاني الثانوي .. ولأول مرَّة أحسُّ بدقات قلبي .. وعندما فتحت بابه وجدت أحمد .. كنَّا في إجازة الصيف في مثل هذه الأيام تقريباً .. انتهى فيلم التليفزيون ، وبدأ فيلمي أنا .. الفيلم الذي شاركني البطولة فيه أحمد .. كان فيلماً طويلاً جداً وممتعاً جداً بدأته في اليقظة وأكملته في الحلم ... لا أدري لماذا في الفترة الأخيرة بدأت أتذكَّر أحمد ، وأستعيد ذكرياتي معه .. رغم أنه جَرَحَني جُرحاً عميقاً .. ولكنه حاول عدة مرات أن يعتذر لك ، وأنت التي لم تستمعي إليه ، وعندما يأس كفَّ عن محاولة الحديث معك .. بل كفَّ عن الحضور لرؤيتك ...)

- ماما .. ماما .. هل رأيت هذا الفيديو ؟

انخلع قلبها من صدرها وكادت تسقط مغشياً عليها كأنها ضبطت ملتبسة بارتكاب جريمة شنعاء .

صـاحت فـي ابنتهـا صـارخة : مـا هـذا ؟! .. فزعتينــي .. مـاذا حدث؟!

– أنا آسفة يا ماما .. فيديو مضحك جداً .

– فيديو ماذا ؟ أنـا لا أريد أن أرى شيئاً .. أنت مجنونـة .. أنـا ظننـت أنـه حـدثت مـصيبة ، وأنـت خارجـة مـن حجرتـك تجـرين وتصرخين .

حضنت نهى أمها وأخذت تقبِّلها وتعتذر لها .

– الموضـوع انتهـى يـا نهـى .. أنـا سـامحتك .. لكـن لـو سـمحت لا تفعلي هذا ثانية .

– أنـا آسـفة يـا مامـا .. لـم أكـن أعلـم أنـك سـتفزعين كـلَّ هـذا الفزع.. هذه ليست أول مرة ...

– الموضـوع انتهـى يـا نهـى .. أنـا سـأدخل لأنـام ، عنـدما يعـود محمد جَهْزَي له العشاء ، ولا تتشاجرا كعادتكما .

– هو الذي يغيظني ولا يعجبه شيء ...

– لـو تحبيننــي لا تتـشاجري معـه اليـوم .. أنـا متعبـة وأريـد أن أنام.

– والله يا ماما هو الذي ...

– نهى .. قلت لك أنا متعبة ويكفي الفزع الذي أفزعتينيه .

– حاضر يا ماما .. من أجلك أنت فقط يا حبيبتي .

دخلت حنان لتنام لكنها لم تنم .

أفاقت على شجار محمد ونهى .

فتحت باب حجرتها وهي تصرخ : ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟

قال محمد : لم يحدث شيء يا أمي لا تنزعجي .

– أهذه هي الوصية التي أوصيتك بها يا نهى ؟!!

– والله لم أقل له شيئاً .. هو الذي منذ دخله يحاول أن يستفزني ويثير غضبي ...

– أنا لا تستطيع أن ترتاح يوماً .. حرام عليكم .. حرام عليكم. وأجهشت بالبكاء .

أعتذر محمد ونهى وقبَّلا رأس أمهما وقالا : لم يحدث ما يستحق هذا .. كُنَّا نمزح كعادتنا .. لماذا غضبت كل هذا الغضب يا ماما ؟! .. نحن آسفان .

– ادخلي حجرتك يا نهى ، وأنا سأجهِّز الأكل لأخيك .

– لا يا ماما أنتِ متعبة .. ادخلي حجرتك لترتاحي ، وأنا التي سأجهِّز الأكل لمحمد .

– تفضلي أنت يا أمي .. أنا سأجهز الأكل مع نهى ، ولن تسمعي لنا صوتاً .

- أنا أصبحت أفضل لا تشغلا بالكما بي .

جهزَّت حنان الأكل لمحمد وبدأ يأكل ، أما نهى فكانت قد دخلت حجرتها بعدما أصرَّت حنان على تجهيز الطعام .

قالت حنان لمحمد : بعد أن تنتهي من الأكل أدخل الأطباق ، ونظِّف مكانها .

- حاضر يا أمي ادخلي أنت لترتاحي .. تصبحين على خير .

دخلت حنان حجرة نهى فوجدتها كالعادة ممسكة بتليفونها وتتابع صفحتها على الفيس بوك فقالت لها : يكفي تليفون اليوم ونامي .

- إن شاء الله يا ماما .. لا تشغلي بالك .

- أنا تعبت معك كل يوم لا تنامين أنت وأخوك إلا في الصباح عندما استيقظ .. أنتما جعلتما الليل نهاراً ، والنهار ليلاً .

- كل الأولاد في الإجازة يفعلون هذا لا تشغلي بالك .. تصبحين على خير يا ماما .

دخلت حنان حجرتها وأغلقت الباب وحاولت استدعاء ما كانت تفكِّر فيه لكنها فشلت ، وأخيراً استسلمت للنوم وهي حزينة .

* * *

٥

في حجرة صالون قديمة في منطقة عشوائية كان يجلس محمد مهندم الثياب ، مرجَّل الشعر ، معطراً .

جاء صاحب البيت .

– أهلاً يا بني .

– أهلاً يا أستاذ شكري .

– شيرين قالت إنك تريديني .

– نعم .. أنا كنت زميلاً لآنسة شيرين في الكلية ، وكانت نِعْمَ الطالبة المهذبة التي أحسن أهلها تربيتها .

– أشكرك يا بني .

– اسمي ، محمد هشام .

– أهلاً وسهلاً .. تشرفنا .. هل شربت شيئاً ؟

– نعم .. أشكر حضرتك .

جاءت والدة شيرين رحَّبت بمحمد وجلست بجواره وهي تقول : محمد زميل شيرين ، شاب مهذب ومحترم .. شيرين كلَّمتني عنه كثيراً .

– أشكرك يا فندم .

عندما لاحظت ارتباكه ، وحيرته قالت أم شيرين لزوجها : محمد كان يريد أن يكلِّمك في موضوع .

– خيراً إن شاء الله ..

تشجَّع وأحسَّ أن أمها في صفِّه فقال : خيراً إن شاء الله .. الحمد لله قد تخرَّجت هذا العام بتقدير جيد ، وأعمل مؤقتاً في معمل تحاليل ، ومن أسرة ميسورة الحال والحمد لله .. ويشرفني أن أتقدم لخطبة بنت حضرتك .

– شيرين ؟

– نعم .. الآنسة شيرين .

– لماذا لم يحضر والدك معك .

– والدي مسافر .

– دولة عربية أم ....

– لا .. أبي يعمل مديراً في شركة السويس لتصنيع البترول .. وعندما نتفق سأحضر العائلة إن شاء الله .

– هل عندك شقة ؟

– لا .. أنا حديث التخرج كما قلت لحضرتك ...

– قلت لي ماذا تعمل ؟

– أنـا أعمـل مؤقتـاً الآن فـي معمـل تحاليـل لكـن هنـاك فرصـة للسفر إلى الإمارات إن شاء الله .

– وهـل بعـد الـزواج تنـوي أن تأخـذ زوجتـك لتعـيش معـك فـي الإمارات ؟

– لا.. مـسألة الـسفر هـذه مؤقتـة .. سـنتان علـى الأكثـر حتـى أتمكَّن من افتتاح معمل تحاليل خاص بي .

– ولماذا أنت مُتَعَجِّل على الزواج ؟ أنت أمامك سنوات طويلة حتى تُجَهِّز نفسك .

قالـت أم شـيرين عنـدما رأت أن زوجهـا قد ضـيَّق الخنـاق عليـه : محمد يريد أن يعمل خطوبة فقط ، وبعد ذلك يمكن أن يتم الزواج.

– بعد كم سنة ؟

محمد : بعد سنتين أو ثلاث إن شاء الله .

– والدك موافق على هذا ؟

– نعم .. وسوف يساعدني إن شاء الله .

– هل لك أخوة ؟

– أخت صغيرة في الجامعة .

- أنا تشرَّفت بك يا بني .. وسندرس الموضوع ونرد عليك إن شاء الله تعالى .

* * *

٦

– كيف حال الأولاد ؟

– الحمد لله على كل حال .

– خير .. هل حدث شيء ؟

– سها ...

– ما لها ؟

– تشتكي كثيراً من زوجها ...

– ألا تحمد الله أن وجدت واحداً يتزوَّجها بعد مصيبتها السواء؟!

– شلبي يهينها ، ويعذبها بعدم ثقته وشكِّه ، ولا ينفق عليها ...

– هي تستحق أكثر من هذا ؟! هي التي مَرَّغَت سمعتنا في التراب .. أنت لا تعلمين ما فعلتُه لأزوجها من شلبي .

– أنا أعلم أنك أنت الذي رغَّبته في الزواج منها ، وتكفَّلت بأغلب مصاريف الزواج ...

– ألا يكفيها ما فعلتْه فينا .. مشاجرات ، وأقسام شرطة ، وقضايا ومحاكم ومحامون ...

- شلبي يسبها ، ويهينها بسبب وبدون سبب .. وآخر مرة قالت لي إنها اكتشفت إنه يعرف واحدة ويراسلها على الفيس بوك ...

قال بعصبية : ولماذا تسمح لنفسها أن تتجسَّس على زوجها ، وتفتش وراءه .. هذه البنت لن تهدأ حتى تقضي علينا .

- اهدأ يا هشام .. الأولاد ما زالوا مستيقظين .

- الأولاد !! .. ابنك محمد الذي تخرَّج بالأمس ، طلب مني اليوم أن أذهب معه لخطبة شيرين ..

- أنت وعدته أن تخطبها له بعد التخرُّج .

وهذه الخطبة ألا تحتاج إلى مصاريف .. ألا تحتاج على الأقل إلى " دبلتين وخاتم " .

- الذهب هبط سعره هذه الأيام .. وفرصة نشتري شبكة محمد .

- من أين ؟ أنت تعرفين الظروف .. ألا يكفي ما أنفقته في مصايب سها : طلاقها ، واضطرارنا لترك شقتنا والسكن في شقة أخرى ، ومصاريف تزويجها ، بالإضافة إلى مصاريف البيت ، والأولاد التي لا تنتهي ؟!

رَبَتَتْ على كتفه وقالت: البركة فيك يا هشام .. مَنْ لهم غيرك؟!

ثم قالت بدلال : عندما نذهب لشراء شبكة محمد .. فرصة أغير سواري الذهب اللذين ضاقا على يدي ، أما الخاتم والدبلة ...

قال بسخرية : السواران ضاقا عليك من سنوات .. لماذا تذكَّرت هذا الموضع هذه الأيام ؟

قالت بغضب : اترك التليفون ، وركز معي .. قلتُ لك أسعار الذهب انخفضت ، والسوران أدميا يدي ، والخاتم والدبلة قطعا أصبعي .

عاد يتصفح موقعه على الفيس بوك مرة ثانية وهو يقول : صدق رسول الله .

– أنا أعرف ماذا تقصد .. دائماً ما تكرِّر حديث كفران النساء العشير ، لكني لا أكفر العشير ، وأحمد الله على كل شيء .. أنت الذي أصبحت الحياة معك لا تطاق...

وانفجرت في البكاء والعويل .

– افعلي ما تشائين أنت وابنك.. الواحد أصبح يكره العودة إلى البيت من كثرة المشاكل ، والنكد .. الناس كلها تشتكي من ارتفاع الأسعار بعد أن رفعت الحكومة سعر البنزين ، وهي تريد أن تُغيِّر الأساور .. والمحروس ابنها الذي تخرَّج بالأمس يريد أن يتزوَّج اليوم !!

***

٧

فور عودتها من عند الصائغ أخذت تبحث عن "فاتورة شبكتها" فلم تجدها .. اتَّصلت بأمها .

- أهلاً يا حنان .. عاش من سمع صوتك .
- كيف حالك يا أمي ؟
- الحمد لله أنا بخير .
- وبابا كيف حاله ؟
- الحمد لله .
- الحمد لله .. أنا اتفقت مع هشام أن أغيِّر سواري اللذان ضاقا علي .
- خسارة يا حنان .. السواران لا يعوَّضان .
- لقد ضاقا عليَّ يا ماما كما تعلمين .. ولم أعد أتحمَّل لبسهما...
- لا تتعجَّلي يا حنان حتى لا تندمي .

– لـن أنـدم يـا أمـي إن شـاء الله .. لقـد اتَّفقـت مـع هـشام ، وانتهينا.. المهم عندما ذهبتُ إلى الصائغ سألني عن " الفاتورة " بحثت عنها عندي ولم أجدها .

ضحكت الأم وقالت : هل نسيتي يا حنان أننا وضعنا فاتورة شبكتك مع القائمة ؛ لأن زوجك رفض ساعتها أن يكتبها باسمك فاحتفظنا نحن بـ...

– آه .. آه تذكَّرت يا أمي .. الحمد لله إنها موجودة عندك .

– موجودة في محفظتك كما تركتها ، وفي الدرج الذي لا يفتحه غيرك .

***

٨

لأول مرة من زمن ليس بالقصير تهتم بأناقتها ، وتتردد كثيراً في اختيار ما تلبسه .

– هل ستأتين معي يا نهى ؟

– هذا الفستان جميل جداً عليك ، وكذلك الطرحة .. أأنت ذاهبة لفرح ؟

– كفى مِزاحاً .. يبدو إنك لا ترغبين في المجيء معي .

– لقد فاجأتيني انتظري لأكوي " بلوزة " وطرحة و...

– ليس لدي وقت ، وأنت عندما تكونين جاهزة أكون قد عدت من عند جدتك .. سلام .

حمدت الله أن نهى لم تأت معها ؛ لأنها تريد أن تمضي وقتاً جميلاً في البيت الذي يضم أجمل ذكرياتها وأحلامها .

منذ استيقظت وإحساس لذيذ ينتابها دون أن تعرف له سبباً (ربما لأن بيت أبي يذكِّرني بأيام الطفولة والصبا والشباب قبل المسئولية والهم والمشاكل) .

بعد أن جلست مع أبويها بعض الوقت أذَّن العصر ، استأذن الأب ونزل ليصلي ويشتري بعض الطلبات .

انتهزت حنان الفرصة ، وسألت أمها عن مفتاح دُرْجها الخاص.

كانت سعيدة جداً وهي تتفقَّد محتويات دُرْجها الذي يشتمل على متعلقاتها الخاصة جداً .. (مازالت كما هي ..) خطابات صديقاتها (غادة ، ومنال ، ودولت ... أين هن الآن ؟ .. منذ زمن بعيد لم أرهن ، ولم أسمع عنهن شيئاً .. أكيد تزوجن وغرقن في الهم) .

كروت مُعَايدة : ورد ، ومناظر طبيعية ، ومعالم سياحية .. عملات ورقية مختلفة مكتوب عليها تهنئة بالعيد، أو النجاح ، أو مكافأة من بعض أساتذتها في المدرسة (كل أساتذتي كانوا يتوقَّعون لي مستقبلاً باهراً : طب ، صيدلة ، هندسة ، على الأقل فنون تطبيقية (أما أن أدخل كلية تجارة فهذا ما لم يتوقَّعه أحد .. وليتني ...) .

مَقْلَمَة (يااااااه مَقْلَمَتي في الابتدائية كم أحبها !) .

شهادات مدرسيَّة (كنت طالبة متفوِّقة .. لا أدري ماذا حدث لي .. كنت أشطر من زميلاتي اللاتي دخلن الطب والهندسة) .
حافظة قديمة (الله .. محفظتي القديمة) .

حضنتها بحب ، وأخذت تتأمَّلها بدقة وتقلِّبها على وجهيها، ثم فتحتها برفق .. صور أبيض وأسود : صور الطفولة ، صاحت (الله ، الله .. ما هذا الجمال ! .. جميلة ، جميلة ، قمر ، قمر ، الشعر الجميل المرسل على الجبهة " قَصِّة شادية " ..) .

صور الابتدائية (جميلة ، وبريئة ، ورقيقة .. آخر مرحلة الطفولة السعيدة) .

صور الإعدادية تبدو فيها بدينة بعض الشيء (لم أكن جميلة في هذه الفترة) .

صور الثانوية العامة : بداية اكتمال الأنوثة والجمال (هذه الصورة أبدو فيها مُجْهَدة .. كانت أيام التقديم لامتحان الثانوية العامة) .

كارنيه الصف الأول في الجامعة كانت تبدو في مكياجها بارعة الجمال (الله ، الله .. كم كنت جميلة يا بنت يا حنان .. هذه أجمل صورة لي) .

عندما أمسكت بعض صور خِطْبتها الأولى انقبض قلبها ، برغم أن الصور كانت فيها في قمة جمالها إلا أنها لم تشأ أن تشاهدها (الله يرحمك يا صلاح) .

قائمة المنقولات .. فاتورة الشبكة (الحمد لله هذه هي الفاتورة التي أبحث عنها) .

بعـد أن تفقـدت الفـاتورة جيـداً .. " أسـورتان ، وخـاتم ، ودبلتـان " الثمن ٧٦٣ سبعمائة وثلاثة وستون جنيهاً فقط لا غير .

بـدا عليهـا الحـزن فجـأة (وعدنـي يومهـا أنـه سيشتري لـي كل مـا أريده عندما تتحسَّن الأحوال ...)

دسَّت الفـاتورة فـي حقيبتهـا ، ولملمـت نفسـها ، وأغلقـت ذكرياتهـا وانصرفت .

***

٩

فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها شاحبة اللون ذابلة الوجنتين غير متأنقة في هندامها تجلس منكسرة .

– أهلاً يا سها.. كيف حالك ؟

– الحمد لله يا ماما .

– كيف حال زوجك ؟

– كما حكيت لك بالأمس .. لا جديد .. كل يوم مشاكل .. ومشاجرات ، وإهانات .

– اصبري يا سها.. كل البيوت هكذا .

– لا يا ماما شلبي شيء مختلف .

– وماذا ستفعلين ؟

– والله يا ماما لا أدري ماذا أفعل ؟ الله يسامحكم أنتم الذين أجبرتموني على الزواج منه .

– لم نكن نعلم أنه هكذا .

– كنتم تعلمون أنه غير مناسب ، ولكنكم أصررتم على الزواج.

– أنت تعلمين السبب يا سها.

– أكبر خطأ ارتكبته في حياتي هو أني وثقت في الملعون خالد.. دمَّر حياتي .

قالت حنان بعتاب : لو كنت صارحتني من بداية العلاقة كنَّا تداركنا الموقف ، ولم يكن وصل الموضوع إلى ما وصل إليه .

– كنت أحبه ، وخفت إذا أخبرتك تغضبين وتثورين وتخبرين أبي …

– كان لا بد أن تخبريني أنا أمك حبيبتك .

– أتذكرين عندما رأيتني أكلِّم زميلي في الشارع ماذا فعلت …؟

– كنت خائفة عليك .

– عندما تعرَّفت على خالد صورة ما فعليته بي أنت وأبي ومحمد جعلتني أخفي كل شيء عنكم .

– وماذا كانت النتيجة ؟!

– لم أكن أعلم أنه … ليتني سمعت كلامك ، ولم أدخل هذه التجربة التي دمَّرت حياتي .

– دمر حياتنا جميعاً .. مشاجرات .. وأقسام بوليس .. وقضايا ومحاكم .. كان كابوساً مزعجاً .. لذا أقول لك اصبري على زوجك .

– إلى متى يا ماما ؟ إلى متى ؟

– يا بنتي لم يمضي على زواجك شهور .. وكل يوم مشاكل ..

– يا ماما أنت لا تعرفين شيئاً .. هذا إنسان لا يعرف شيئاً عن الذوق أو الأدب .. تصوري يا ماما أنه ينتهز فرصة أي خلاف ويعيِّرني بموضوع خالد ، ويقول : أنت إنسانة ... ويسبني ويضربني .. ويأخذ كلَّ شيء اغتصاباً : أموالي و ...

وانفجرت في البكاء ، وكشفت عن مواضع في جسمها حمراء وزرقاء وسوداء .

أخذت حنان سها في حضنها ، وقالت والدموع تملأ عينيها : والله يا حبيبتي لا أدري ماذا أقول لك .. أنا كلمت أباك في هذا الموضوع كثيراً .

قالت سها وهي تغالب دموعها : أكيد وقف في صفِّ ابن أخيه؛ فهو الذي ورَّطني فيه .. لماذا كان متعجلاً على زواجي .. أنا لست أول واحدة تفشل في زواجها وتطلَّق .

– أنت تعلمين يا سها أنه لو كان زواجاً طبيعياً فليس فيه شيء إنما كان زواجاً عُرفياً .

– ومــاذا فـــي الــزواج العرفـــي؟! .. هــو زواج ككــل زواج .. المشكلة ....

– لا .. يا سـها.. لا نريـد أن نـضحك علـى أنفسنا .. هو لـيس زواجاً ..

– أقسم لي أنه زواج شرعي .. وأنه بعد التخرج سوف يتقدَّم لـي رسمياً .

– وبعد ذلك تخلَّى عنك .

– ليته تركني في حالي إنما أخذ يهدِّدني ، ويبتزني .

– ربنا ستر ، واستطاعت المحكمة أن تخلِّصنا منه .. المحامي قال لنا إذا لم يكن القانون قد تغيَّر كانت ...

– غيري هذا الموضوع يا ماما .. أنا أحاول أن أنسى .. لماذا تذكِّريني به ؟

***

١٠

ذهبت لزيارة أمها ؛ لتضع فاتورة الذهب الجديدة في حافظتها الخاصة .

– كيف حالك يا حنان .. أريني ماذا اشتريتي ؟

مدَّت حنان معصمها لأمها لترى السوارين الجديدين .

– باسم الله ما شاء الله .. باسم الله ما شاء الله .. لكن السوارين القديمين خسارة .. أين الخاتم والدبلة ؟

– لم يبق لهما من ثمن السوارين القديمين شيء ، ورفض هشام أن ...

– خسارة .. خسارة .. وهل تبقين دون دبلة هكذا ؟

– أنا لست في حاجة إليها الآن .. أصبعي ما زال يؤلمني بسببها .

– هل كتبت فاتورة الذهب باسمك كما أوصيتك ؟

– لا .. أصرَّ هشام على أن تُكْتَب باسمه مثل الفاتورة القديمة ؛ لذا أحضرت الفاتورة معي لكي أضعها مكان الفاتورة القديمة .

– شاطرة .. شاطرة يا حنان ما دام يُصِرُّ على أن تكتب باسمه نحتفظ نحن بها ، قومي ضعي الفاتورة في الدرج .

المَقْلَمَــة .. صــور : الطفولــة ، والابتدائيــة ، والإعداديــة ، والثانوية، والجامعة .. العملات الورقية .. كروت المُعَايدة .

عندما وصلت حنان لقائمة المنقولات وضعت تحتها الفاتورة الجديدة .

لاحظت أن هناك أوراقاً مطويَّة في قعر الحقيبة .

فتحتها برفق .. ثم صاحت دهشة (قصة أحمد !!!)

رجف قلبها (ياااااااه منذ أكثر من عشرين عاماً لم أقرأ القصة .. مرَّت عليَّ سنوات نسيتها ونسيت صاحبها ..)

شرد ذهنها ، وهي ممسكة بصورة القصة وقلبها مازال يرجف بعنف كيوم أمسكت بأصلها ، وبدأت تقرأها في نفس المكان الذي قرأتها فيه منذ ٣٤ سنة :

عندما لا يبلغ الصمت

تعوَّد شاب أن يذهب إلى شاطئ النيل أصيل كل يوم ، وكان يلفُّه صمت عميق وحزن كبير .

ساءلت الأمواج الأصيل : تُرى ماذا يُخفي هذا الصمت من أمر الشاب ؟ إنه تعود (الكلام مازال للأمواج) أن يأتي في مثل هذا الوقت من فترة طويلة ، ويلقي بنظراته الشاردة في الأفق البعيد .

فقال الأصيل لقد هممت أن أسألك نفس السؤال .. ربما وراءه خطب عظيم يتضح من هذه الأنفاس العميقة التي كأنه يحتبسها طوال يومه ويأتي هنا ليلفظها .

وفجأة انفجر صوت مدوٍّ قطع حديثهما ، ومزَّق هذا الصوت الصمت الذي كان يلف الشاب .. كان الصوت هادئاً عندما همس في أول كلامه ببعض كلمات الشكر لهذين المتحدثين بشأن الشاب .

سألته الأمواج : من أنت ؟ وما شأنك بهذا الشاب ؟

قال : أنا توأم روحه ، ومنبع آلامه وأفراحه ، عرفته منذ عرف الحياة ، ولم نفترق لحظة بعد ذلك ، ولن نفترق حتى بعد الموت ، لقد عانيت زمناً طويلاً من سجن لعين ، وأغلال لا تلين ، ولكن اليوم لا أستطيع أن أصمت ، ولا أستطيع أن أخرج إليكما ، ولكن سأحدثكما من وراء قضباني حكايتي مع هذا الشاب.

وهنا توقَّفت الأمواج ، وصغَى كلٌّ شيء لهذا الصوت الذي يأتي مُدوِّياً من أعماق الشاب ويصل إليهما هزيلاً .

بدأ الصوت قائلاً :

إنه شاب ليس كما عهدتما من الشباب إنه طراز عجيب وغريب لقد عرفته رجلاً وهو ما يزال طفلاً ، ولم أره يوماً يشارك الأطفال

أفراحهم وألعابهم كأن اللعب والمرح لم يخلقا لـه إنما قُدِّر عليه أن يكـون منعزلاً ، ولـم يجد من يدخل فـي أعماقـه ، ويبحث لـه عن بسماته ، ولـم يجـد الناصـح الحكيم ، ولا الـصديق الـرحيم ؛ فـآثر العزلة ، وكانت له خير صديق .

- (كان أحمد إنساناً مختلفاً فعلاً .. ليس ككل الأولاد .. مؤدب جداً .. متفوِّق دراسيَاً .. ساكت دائماً ...)

وبعـد أن أَلِـف هـذه العزلـة الموحـشة جـاءت مـن تـشعره بالحـب والتفـاهم اللـذين افتقـدهما صـغيراً .. إنهـا لـم تكـن كمـا عَهِـد مـن الفتيات لقد كانت للقمر ضياؤه ، وللنسيم رقَّته ، وللحب حنانه ..

- (" لقد كانـت للقمـر ضـياؤه ، وللنـسيم رقَّتـه ، وللحـب حنانـه " مـا أروعـك يـا أولَّ دقـة قلـب ، وأول أحـساس بالحـب ! .. كـدت أطير من الفرحة عندما قرأت هذا الكلام أول مرة ، وأعدت قراءته عدة مرات ...)

فآست جراحـه ، وضـمدت كلَّ حرمانـه ؛ فكانـت لـه قـارب النجـاة من خِضَم الحيـاة ، وسلوة النفس من بؤس الأمس .. عرف منها أملاً للحياة ، بعدما كان قد نسيه ؛ فنهل من هذا المنهل العذب ، حتى ارتوى حرمانه من كلِّ جدب .

ونما مع الأيام حب كبير ، لم يعرف له من قبل مثيل ، جذوره الصدق ، وساقه الإخلاص ؛ فحمَّل صمته رسائله إليها بعدما عجز لسانه عن أن يبلِّغ كلامه ؛ فقد عبَّر عن حبه لها بكلِّ نجاح أحرزه ، وكلِّ تقدُّم أنجزه ، فكان نجاحه يصرخ بأعلى صوت بحبه، ولكنه لا يدري هل بلَّغ الصمت أم لا ؟

- (نعم كنت أحس بك ، وبمشاعرك تجاهي ، ولكني كنت أتمنَّى أن أسمعها منك صريحة .. ليتك قلتها ...)

- الأكل جاهز يا حنان .

اضطربت وطوت القصة بسرعة ودستها في حقيبتها (صوت شبيه بهذا الصوت هو السبب فيما أنا فيه الآن .. " إذا حاول أن يكلِّمك مرة ثانية فلا تردي عليه .. لو كان يحبك لدخل البيت من بابه .. يا جدتي إنه إنسان مختلف ليس ككل الأولاد إنه مؤدب جداً .. كل الأولاد يتظاهرون بذلك .. إياك أن تكلِّميه وإلا أخبرت والدك .. أتسمعين ؟ .. يا جدتي أنا أحبه .. ليس هناك حاجة اسمها حب .. الحب كلام فارغ يضحك به الأولاد على البنات .. لو كان يحبك فعلاً يكلِّم والدك ، فإذا لم يكلِّم والدك فاعلمي أنه يتسلَّى بك ... ")

- هيَّا يا حنان الأكل سيبرد ، وأبوك ينتظرك ..

- حاضر يا ماما أنا آتية حالاً .

فتحت الأم باب الحجرة وقالت : هل وضعتي الفاتورة ؟

- نعم .. يا أمي وضعتها .

نظرت حنان على صورة معلقة على الجدار وقالت بتأثر : الله يرحمك يا جدتي .

- كانت تحبك كثيراً يا حنان ؛ فأنت أول حفيدة لها .. الله يرحمها .. والله منذ زمن وأنا أريد أن أزور قبرها .. إن شاء الله في طلعة رجب القادم سأزورها .. هل تأتين معي ؟

- حسب الظروف يا ماما .

بعد الغداء وقفت في البلكونة .. مدت بصرها إلى الأمام .. البيت الثاني على اليمين (على ناصية الشارع وأمام هذا البيت كان أحياناً يأتي ليراني بعد المغرب حيث كنت أقف في البلكونة لأشم الهواء في ليالي الصيف الحارة) .

نظرت إلى الشارع الطويل الذي أمامها (كنت أراه كثيراً يسير في هذا الشارع ذاهباً أو آتياً .. أظن أنه كان لا يراني فقد كنت أجلس على بسطة سلم بيتنا في الظلام وأراه من قضبان وسلك الباب الحديدي العمومي المغلق دائماً .. كنت انتظره لأراه في خطواته السريعة الجادة ...)

- حنان .. حنان .. الشاي برد .

بعد أن شربت الشاي في البلكونة استأذنت في الانصراف .

- لماذا أنت متعجِّلة ؟!

- نهى بمفردها في البيت ، ووعدتها أن أعود سريعاً.

- نهى لم تعد صغيرة .. نهى أصبحت عروسة باسم الله ما شاء الله .. المرة القادمة أحضريها معك يا حنان ...

- إن شاء الله ...

- عندما أرى نهى أتذكرك وأنت في سنها .. ابنتك الكبيرة تشبه والدها ، أما نهى فهي نسخة منك .

منذ خرجت من البيت فتحت كاميرا عينيها وبدأت في التقاط صور متوالية .. الطريق الرئيسي الذي كان يسير فيه .. البيوت على جانبي الطريق .. كأنها تبحث عن شيء .

- (ليتني أعرف أين كان يسكن ...) .

سيطرت عليها رغبة جامحة في رؤية المكان الذي رأته فيه آخر مرة .. (كنتُ يومها عائدة من عند خالتي ورأيته واقفاً مع شاب آخر نظر إليَّ طويلاً ، بادلته النظرات .. تمنَّيت ساعتها أن يكلِّمني وو... أحاسيس مضطربة ..) .

أحـسَّت أن النـاس بـدءوا يلاحظـون وقوفهـا المتكـرِّر ، فـسلكت طريق العودة .

فـي طريـق العودة عادت تَسْتَنْطِق معالم الطريق عنـه (هل مرَّ بكم ؟ ومتـى ؟ ما حالـه الآن ؟ هل تزوَّج ؟ ما شكل زوجتـه ؟ هل عنده أولاد ؟ كم ولداً ؟ وما أسماؤهم ؟ هل ما زال يـذكرنـي ، ويفكِّـر فيَّ؟ ..)

وقفت علـى محطـة الأتوبيس (محطـة الأتوبيس التـي كنت أركـب منهـا إلــى الجامعـة ، وكنــت أراه أحيانــاً يقـف تحـت هـذه الـشجرة وينظر إلـيَّ) .

مرَّ بهـا الأتـوبيس الـذي تريـد ركوبـه ولـم تركبـه .. ثـارت أشـواقها جامحة، ولم تُطِق الانتظار حتى تعود إلى البيت .. عبرت شارع الكـورنيش ووصــلت إلــى شــاطئ النيــل .. أخرجــت القـصة مـن حقيبتها ، وقرأتها من البداية ، ثم أخذت تتأمَّل أمواج النيل ، وكـان الوقت وقت الأصيل (تُرى هل هذا المكان الذي كان يتحدَّث عنـه فـي قصته ؟ أكيـد هـو نفـس المكـان أو مكـان آخـر قريـب منـه .. أحسُّ يقيناً إنه هو ..)

تلفَّتـت حولهـا .. اسـتغلَّت خلـوَّ المكـان مـن النـاس فقالـت مناجيـة أمـواج النيـل والأصـيل (أيتهـا الأمـواج .. أيهـا الأصـيل .. أنــا

حنان.. حنان حبيبة أحمد الذي حدثكم عنها منذ .. منذ .. ياااااه منذ ٣٤ سنة ...)

توقَّفت عن المناجاة وتلفَّتت ثانية حواليها ثم أكملت (أنا حنان.. هل ما زال يأتي إلى هنا كما كان يفعل قديماً ؟ .. ليته يأتي الآن.. يا لها من مفاجأة لو استدرت فوجدته يتَّجه نحوي) .

التفتت حواليها رأت شاباً يسير على الكورنيش باتجاهها (ليته يكون هو .. لو كان هو ستكون أجمل مفاجأة في حياتي .. لو كان هو والله ما ترددت لحظة في مخاطبته ...) .

خجلت من نفسها عندما مرَّ بها شاب لا تعرفه وهي تحدِّق فيه.

وبينما بدأ يعيش أيامه ، ويرسم آماله عاجله الدهر بما أفقده الحياة ، وقيده ثانية بسلاسل الحرمان يومئذ كان حرمانه فوق كلِّ حرمان ؛ لقد أطاح به الدهر بعيداً عنها ، وكان عليه أن ينسى ، ولكن كيف ؟ وأين السبيل ؟ بعدما تحوَّل الدواء إلى جراح ، بعدما قتل الحب كلَّ الأفراح ، بعدما غدت حياته ليلاً بلا صباح ؟ فهوى من ذُرا الحب إلى هوة الحرمان ، وعاش حياة يحدوها الأمل البعيد، بعدما بعَّد القدر له كلَّ قريب ؛ فسقى شبابه بؤساً وعاش بين الناس كالغريب ، ولكنه أقسم بحبه لينتصرن على القدر ، ولن يترك آماله تحتضر.

– (منذ تركنا المدرسة ، لم نلتق .. كان يعرف بيتي جيداً ، فلماذا لـم يـأت ليرانــي ؟ .. لمـاذا يتعـذَّب هـذا العـذاب ، ولا يحـاول أن يرانـي؟ .. هل ترك بيته وسكن في منطقة أخرى ؟ .. لكنـي كنت أراه أحياناً يمرُّ أمام بيتـي .. ربما كان يأتي ليرانـي .. لا أدري .. لا .. لم يغيِّر سكنه تذكَّرت فقد رأيته في مسابقة أوائل الطلبة في الإعدادية .. يومها رأيته واقفاً على باب المدرسة يودِّعني بنظرات خجلة .. ساعتها لم أكن قد تعلَّقت به بَعْد .. وربما كان هو كذلك .. أنا أذكر جيداً أن بداية تعلُّقي به عاطفياً كان بعد أن شاهدت لأول مرة فيلم " حبيبي دائماً " وكان ذلك في الصف الثاني الثانوي ، يومها فكَّرت فيه كثيراً ، وحلمت به ، وتمنيت أن أراه ...)

بدأ الظلام يكسو المكان الذي تقف فيه ، وتعذَّرت رؤية الكلام طوت أوراق القصة ، وعادت إلى بيتها .

* * *

١١

سلمت على نهى وقبَّلتها ودخلت حجرتها لتبدل ملابسها دون أن تترك حقيبتها على منضدة السفرة كعادتها .

أغلقت الباب ، وبسرعة أخرجت القصة ، وصعدت على كرسي وأخفتها بين ملابس الشتاء .

- هل أكلت يا نهى ؟
- لا .. لم آكل بعد .
- لماذا لم تأكلي ؟! وماذا كنت تفعلين ؟
- كنت كما ترين .

نظرت في ساعتها ثم قالت دهشة : ست ساعات لم تتركي التليفون .

- عادي .. يا أمي .. ما الغريب في هذا ؟!

- قومي كُلِي ؛ أنا أكلت عند جدتك .. وسأستريح قليلاً .. وسأغلق الباب حتى لا أستيقظ على صوت شجارك مع محمد .

- محمد لن يأتي قبل منتصف الليل كما تعلمين .

دخلـت ، وأغلقـت بـاب حجرتهـا ، صـعدت علـى الكرسـي وأحضرت القصة .

غطَّت نصف جسمها بملاءة ، رغم أن الجو كان حارّاً .

ولكنـه أقسم بحبـه لينتـصرن علـى القـدر ، ولـن يتـرك آمالـه تحتضر؛ فاتخذ من آلامـه آمـلاً جديـدة ، وبنـى بكفاحـه صـروحاً عديدة ، فكان لا يدخل مجالاً إلا وتفوَّق فيه ، ولا يعمل عملاً إلا وكان النجاح يحابيه ؛ فقد كان عنيداً أشد ما يكون العناد ، فقوَّم نفسه عن كل ما يُعاب ، وتسلَّح من الزمان بكلِّ سلاح ، حتـى أصبح مثلاً يضرب للكفاح .

فكان مع النابهين نابهاً ، ومع الحكماء حكيماً ، ومع الأدباء أديباً ، حتى تخطَّى جيله ، وسبق سنينه ، فأوفى بقسمه ، ولكن إلى متى يطول بعاده عنها ؟! إلى متى يعذَّب بهذا الحب الكبير ؟ إلى متى يكتم هذا الشوق المتدفِّق ؟

– (لم أكن أعلم عنه إلا أنه كان متفوِّقاً دراسيّاً فقط .. وكان مؤدباً ...)

ولكن إلى متى يطول بعاده عنها ؟! إلى متى يعذَّب بهذا الحب الكبير ؟ إلى متى يكتم هذا الشوق المتدفِّق ؟

فقرَّر أن يقتل الصمت ويخبرها بحبه ، ولكن أين يجدها بعد هذا الزمن البعيد ؟ وكيف يبلِّغها بهذا الحب الفريد ؟ أيقتل آخر آماله بيده ؟! أيحرم نفسه من أوهامه ؟!

_ (" أين يجدها بعد هذا الزمن البعيد " !! .. كيف ينسى بيتي وهو يعرفه جيداً ؟ .. آه لقد تذكَّرت ربما لم يكن يعلم بيتنا الجديد الذي انتقلنا إليه .. لكن البيت الجديد قريب جداً من البيت القديم.. ولا أظن أنه كان يجهله فجارنا مجدي كان أعز أصدقائه .. ما هذا اللغز المحير ؟ ...) .

ابتسمت وقالت في نفسها (عندما أقابله سأسأله عن هذا الموضوع ...) .

سمعت دوياً كبيراً ، أخفت القصة بسرعة تحت الملاءة ، وفتحت الباب مهرولة ، وهي تقول : ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث يا نهى ؟

– لا شيء يا أمي لا تنزعجي .. لم يحدث شيء .. الطبق سقط من يدي وأنا أحاول أن أعيده مكانه .. لا تنزعجي يا أمي.. أنا آسفة .. لم أقصد .. اذهبي لتستريحي يا أمي .

بعد أن اطمأنت على أنه لم يحدث شيء بالفعل تذكَّرت القصة فأسرعت إلى حجرتها .

وبعد أن هدأت قليلاً أخرجت القصة من تحت الملاءة .

فقرَّر أن يقتل الصمت ويخبرها بحبه ، ولكن أين يجدها بعد هذا الزمن البعيد ؟ وكيف يبلِّغها بهذا الحب الفريد ؟ أيقتل آخر آماله بيده ؟! أيحرم نفسه من أوهامه ؟!

ولكن الشوق كان أقوى من أن يكتمه ، والحب أكبر من أن يحمله ، وبينما هو في حيرته هذه علا صوت الشيطان الذي قيَّده بأغلال إيمانه من زمن طويل .. كان الصوت فيه سخرية وهو يذكِّره بالفتيات اللاتي طاردنه بحبهن في كلِّ مكان وأعرض عنهن جميعاً ؛ لأنه كان وفيَّ العهد بحبه فلم يستجب قلبه لأي نداء ، ولكي يخمد هذا الصوت اللعين ، ويثبت له أنه لم يكن مخطئاً عندما صان حبَّه ، قرَّر أن يبحث عنها ويحدِّثها ويزيل كل حائل بينها وبينه .

-(هل كان يقصد بالفتيات اللاتي أحببنه طالبات الفصل : منال ، وحنان محمود ، ومحروسة ؟! .. هن بالفعل كن معجبات به ، كنت أغار عليه منهن .. أم إنه يقصد فتيات غيرهن .. أم يقصد زميلاتي في الكلية سمية وحنان اللتان كان يتحدَّث معهما عندما يأتي إلى الكلية ؟! .. الذي يُحَيِّرُني حقاً ، إذا كان يحبني كما يقول فلماذا لم يكلِّمني مباشرة .. آه قد تذكَّرت ، هو كلَّمني

فعلاً ونحن في الثانوية العامة ، وهو كاتب هذا في القصة على ما أتذكَّر .

وفي يوم عرف مصادفة وقت خروجها المعتاد ، وفي صباح اليوم التالي خرج ليلقاها ، ولكنه عاد من منتصف الطريق .. عاد إلى بيته مثقلاً بخيبة الأمل ، وبعد تفكير طيلة اليوم عزم على أن يقابلها في اليوم الثالث .

مرَّت ساعات هذا اليوم طويلة ومتثاقلة ، وقبل الميعاد بعدة ساعات ذهب إلى حيث مكان مجيئها ، وأخذ يقلب أموره مع نفسه.. إنها المرة الأولى التي سيتحدَّث فيها عن حبه ، بعد أن احتواه صمته طول عمره ، فمن أين يبدأ ؟ وإلام ينتهي؟ ولكن ظنونه أفسدت عليه تفكيره ، ومحت من عقله كل العبارات ، أخذ يقلب في عقله بحثاً عن كلمة واحدة يقولها لها لتخرجه من هذه الحيرة القاتلة . فكيف وهو الشاعر الذي يصوغ الكلمات ألحاناً ، ويؤلف من ورودها بستاناً ، وكيف وهو الأديب الذي يسلب عقول وقلوب كل من سمعوا منه قصيدة أو قرءوا له قصة لا يستطيع أن يجد كلمة واحدة ؟

آهٍ .. لو رآه أحد أصدقائه وهو في هذا الموقف ، إنه ليصدم صدمة ما بعدها صدمة .. هذا بشأن الصديق فما بالكما بالشاعر

نفسه ! إنـه ليود أن يخـرج هـذا القلـب الـذي أعجـز لـسانه وأرعـد أوصـاله وفتح بـاب فكره للظنون والهواجس ، هذا القلب الذي كـان وَكْر أفراحه وأحزانه ...

ولكنه قطع حديثه مع نفسه وأخذ يهز رأسه لتتساقط هذه الظنون اللعينة .. كان يقف على قارعة الطريق ، ولأول مرة يقف مثل هذه الوقفــة إذا اســتثنينا بعــض المواقــف الاضــطرارية مــع بعــض الأصدقاء؛ لقد كان أكثر جديَّة في حياته إذ أنه لا يخرج من منزلـه إلا بعد أن يحدِّد مكانه الذي سيذهب إليه ، ومكانه الذي يعود منـه حتى لا يقف لحظة يفكِّر فيها إلـى أين هو ذاهب . إنـه كان كثيراً مـا ينهـى هـؤلاء الـذين يقفـون فـي الطرقـات ، كـان ينهـاهم بـشدة وحزم، وأحيانـاً بـالقوة ، ها هو اليوم يقف مثلما كـانوا يقفون .. إن الوجوه كانت ترمقه وتُعِدُّ عليه أنفاسه ، وعيونهم كانت تصوِّب إليـه أسهم التعجب والتساؤل :(ما الذي حدث حتى يقف هذه الوقفة ؟).

لقد فكَّر مئات المرات في العودة إلـى منزلـه ، ويلقي بنفسه فـي أحضان الأوهام هرباً من الواقع الأليم ، وفجأة رآها قادمة من بعيد .. استجمع كلَّ قواه وأيقن أنـه إذا لـم يـستطع أن يحـدثها سينتهي وسيحطمه حبه الكبير .. لقد أخذت يداه في الارتعاد ، وقلبـه فـي الدقِّ بعنف ، ولكنـه قاوم .. وقاوم .. وهي تقترب .. وتقترب حتـى

صارت على بعد خطوتين منه ، ورقصت الأماني ، وصفح عن الزمان الجاني ، ولكنه قبل أن يغرق في هذه السعادة التي نضبت من كأسه من عدة سنوات .. فجأة دخلت أحد المنازل التي كان يقف بالقرب منها بخطوتين ، لقد نطق باسمها بصوت يقيده الخوف ، ولكن لم يصل الصوت.

– (أنا أذكر هذا اليوم جيداً . كنت في الثانوية العامة ، وكنت ذاهبة إلى درس الفيزياء .. وكان يقف بجوار بيت زميلتي التي نأخذ عندها الدرس .. فوجئت به .. اضطرب كلُّ كياني عندما رأيته .. ولم أدري ماذا أفعل .. خفت أن يراني الأستاذ أو بعض زميلاتي فدخلت البيت بسرعة دون أن أنظر إليه .. تقريباً نادى عليَّ ولكن بعد أن دخلت البيت .. لم أفهم شيئاً من كلام الأستاذ في هذا اليوم ؛ فقد كنت أتوقع أن أجده ينتظرني أمام البيت .. وبدأت أفكِّر .. ماذا أفعل إذا حاول أن يكلِّمني؟ .. هل أكلِّمه ؟ .. إنه زميل قديم ، وربما يريد أن يسألني عن شيء يخصُّ الدراسة .. أو يريد أن يطمئن على أحوالي .. أو إنه يريد أن يعبِّر لي عن شيء يحس به تجاهي .. لم أفهم شيئاً من درس الفيزياء ، وكلَّما اقترب الدرس من نهايته ازداد اضطرابي .. ماذا أفعل إذا كان ما يزال ينتظرني؟ .. العجيب إني عندما نزلت لم أجده أمام البيت .. قلت ربما ينتظرني في مكان آخر .. أو إنه كان يقف أمام البيت

بالصدفة .. احترت جداً وظللت ساهرة طوال الليل أفكر في هذا الموضوع .. وأقلِّب الموضوع على كل وجه .. وبين الحين والآخر أعود أسأل نفسي : وماذا لو رأيته مرة ثانية وحاول أن يكلِّمني ؟ ماذا أفعل؟ .. احترت .. لاحظت جدتي قلقي وحيرتي فقد كانت تنام معي على السرير ، وكنت أحبها ، وأخذت تسألني عن سبب قلقي هذه الليلة وعدم نومي ، وكنت أتهرَّب من سؤالها .. وأخيراً استحلفتني أن أقول لها الحقيقة ...)

سمعت جرس الباب .. فزعت .. قامت بسرعة .. صعدت على الكرسي .. كادت تسقط من فوقه .. التوت رجلها وهي نازلة .. صرخت .. وجدت محمد ونهى فوق رأسها.. حمدت الله أنهما وصلا بعد أن أخفت معالم الجريمة .

* * *

١٢

لـم تـنم الليـل إلا قلـيلاً بـسبب الألـم ، ومـع ذلـك اسـتيقظت فـي ميعادها .. كان السؤال الذي يلحُّ عليها طوال الليل (ماذا يمكن أن يحدث إذا كان محمد ونهى قد عرفا موضوع القصة ؟)

فكـرت كثيـراً أن تمـزِّق القصـة وتنـسى الموضـوع تمامـاً .. وتعـود كما كانت (أعود إلى : الإهمال ، والملل ، والتجاهل .. الساعات الوحيـدة التـي أشـعر فيهـا بالـسعادة هـي عنـدما أسـتعيد ذكريـاتي القديمة : أيام الصبا والشباب .. قبل أن أحمل الهمَّ .. بعد الزواج وانقضاء شـهر العسل انـشغلت تمامـاً .. حمـل ، وإنجـاب ، وتربيـة وتعـليم ، ومـذاكرة ودروس ، وأمـراض ودكـاترة وعـلاج ، بالإضـافة إلـى الطبخ والغسيل والتنظيف وأعمال البيت التي لا تنتهي .. لم أنس أحمد في هذه السنين فقط إنما نسيت نفسي أيضاً .. تعبت وليس من مُعين .. كل واحد يعيش في عالمه ، ولـه أصدقاؤه .. وأنا أحمل همَّ الجميع ، ولا يحمل همِّي أحد .. لم أَعد أحتمل ..

هل كثير عليَّ أن أعيش لحظات لنفسي؟! .. أنا لا أفعل شيئاً خطأ ..)

استندت إلى الحائط حتى دخلت حجرتها وأغلقت بابها بالمفتاح .

تعبت حتى صعدت على الكرسي وأحضرت القصة ، وكادت تسقط على الأرض وهي تنزل .

.. فجأة دخلت أحد المنازل التي كان يقف بالقرب منها بخطوتين ، لقد نطق باسمها بصوت يقيده الخوف ، ولكن لم يصل الصوت.

.. يا ويل ما حدث لقد انهارت كل الصروح التي من الخيال بناها ، وزلزلت أرض الوقار والحكمة تحت أقدامه ، وعاد إلى منزله ، ولكنه لم يعد كما ذهب ؛ لقد عاد حطام رجل ، وأطلال حبيب .

لقد حاول أن يلقي بنفسه في عدة أعمال لعله ينسى ، ولكنه لم يفلح في أن يمنع نفسه من التفكير فيما حدث ؛ إنه كان يعلم أنه إذا فتح باب التفكير في هذا الموضوع لخرج بنتيجة سيئة تكمل على ما تبقى منه .. حاول ألا يفكر فيما حدث هذا اليوم ؛ فالجروح مازالت تنزف بشدة ولا دواء لها إلا تجاهلها ، ولو مؤقتاً

حتـى تـضمد بعـض الـشيء ؛ فخطـرت علـى بالـه فكـرة جنونيـة فأحيانـاً لا يـسعف العقـل صـاحبه ؛ فأخـذ يقـوم بأعمـال هـستيرية ليغطـي علـى أصـوات المعـارك التـي تـدور بداخلـه ، فبـدأ يلعـب ويعبــث بكــلِّ شــيء كالأطفــال .. وراح يغنِّــي بعــض الأغــاني بهستيرية .. لقد أثار ذعراً في المنزل .. الكلُّ يتساءل ماذا دهاه ؟ إنـه اليوم علـى غير عادتـه فما عهدناه إلا صـامتاً منعزلاً .. مـاذا حدث له اليوم ؟ ولكنه تمادى في هذه اللعبة لأنها على الرغم من كلِّ ما حدث في المنزل إلا أنها أرحم من أن يترك نفسه فريسة للتفكير ، ولكن هستيريته لم تدم طويلاً ؛ فقد كانت ككأس الخمر الذي يعود صاحبه بعد خمار العقل ليجد نفسه على الخط الذي كان عليه بل أسوأ .

فعنـدما سـقط الليـل ، وهجـع الجميـع إلـى النـوم نـشب الـصراع الرهيـب ثانيـة ، وعـادت رحـى المعـارك تـدور ، ولكنـه كيـف يخمـد هذا الصراع ؟ أيقوم بالأعمال الهستيرية ثانية في هذا الوقت؟! إنـه ليصبح مجنوناً حقاً ، ولكن ماذا يفعل ؟

أخذ يبحث عن موضوع آخر ، ولكن كل المواضيع ذابت فور نـشوب الـصراع الملتهب ، وبعـد أن أخـذ منـه الـسهد مـا أخـذ كـان المخـرج الوحيـد هـو أن يـستعين بـشيطانه الـذي حطـم أغلالـه .

أخذ الشيطان يكرِّر عليه قصص فتياته الحسناوات اللاتي طرقن باب حبه مِراراً ومازلن ينتظرن خلف الباب ، ويذكره بأن ما حدث لمن حسن طالعه ؛ لأنه سيكون في المستقبل القريب ذا مكانة كبيرة ، وتكون فتاته لا تتناسب مع ما وصل إليه ، وحين ذلك سيكرعها من معين الندم ، ويطعمها من أشجار الحسرة ، ولقد خفَّفت هذه الكلمات قدراً كبيراً من آلامه ؛ لأنها كانت قريبة جداً من الحقيقة .

ألقت القصة في غضب – (هل كلُّ الرجال هكذا ؟ يريدون النساء صيداً سهلاً ، فإذا اقتنصوه تطلَّعوا لغيره ، وإذا فشلوا عادوه وقرَّروا الانتقام منه .. لو كنت قد تزوَّجت أحمد لاستغل حبِّي له وأذلَّني .. يظلُّ الرجل يتغزَّل في حبيبته ويسهر الليل ، ويعمل المستحيل فإذا استجابت له تملَّكها واستخدمها واستراح هو ...)

خرجت ، وبعد أن أدَّت بعض أعمال البيت اليسيرة ، أحسَّت بالملل فنهى ، ومحمد ما زالا نائمين ، والمسلسل الذي تتابعه لما يحن وقته .

وبعد تردد كبير عادت إلى حجرتها :

ومرَّت عليه بعد ذلك ليالٍ طويلة ، وهموم ثقيلة ، وكان بين عقل ينكر وقلب يعذر ، ولكن دقات صوت القلب طغت على همسات العقل ؛ فوجد نفسه يتناسى كل شيء حدث بالأمس ،

بعدما فشل مع قلبه كل تأسِّي ، وعلى الفور زرع الخيال من الشوك بستاناً ، ومن الخوف أماناً ، ومن الحقيقة أحلاماً .

وبعد طول انتظار حان موعدها فاقتاده قلبه إلى نفس الطريق الذي أقسم ألا يعود إليه ، ولكن سرعان ما عاد إليه بعدما تراقصت الأحلام ثانية في مقلتيه .

شَعَرَتْ برغبة شديدة في كوب نسكافيه ذهبت إلى المطبخ وعملت كوباً كبيراً من النسكافيه ثم عادت :

رآها آتية إنها آخر صيحة لهذا القلب فإن فشل في أن يحدِّثها فسوف يُخْرِس صوته إلى الأبد ، ويُعْلي صوت العقل الذي أخمده، لقد اقتربت فتأهَّب ، فاقتربت فتنهَّد .. كانت تنهيدة عميقة سافرت في كلِّ جسده كأنها تودِّعه إلى اللا عودة .

اقتربت أكثر حتى أو شكت أن تجتازه فاستوقف خطواتها بعد سنين طوال لم تكف عن السير من إمامه ، لقد نجح في أن يمسك بخيط الكلام الذي أعدَّه ، ولكن سرعان ما تقطع خيط الكلام ، وتفرَّقت العبارات .. حاول أن يجمعها ولكنها صفعته بكلام كان قد توقَّعه منها ، ولكن لم يكن يدور بخلده أبداً أن تقوله بهذه الطريقة التي أفقدته النطق .. كأنها لم تعرفه من قبل !! .. ولم تره إلا الآن !! .. كان يظن أنه بمجرد أن يخطو أول خطوة

نحوها تدب فيه الأمل الذي فقده ، والطريق الذي ضله ، والحياة التي زهدها ، ولكنها بترت الخطوة الأولى ، وقيَّدت الثانية .

ابتسمت ابتسامة عريضة (كان مضطرباً وهو يقول " أنا أريد أن أكلمك في موضوع .. موضوع ماذا ؟ ... تلعثم ، اضطربت الحروف والكلمات فلم أميز من كلامه إلا الكورنيش ، الساعة ٥ غداً .. تذكَّرت كلام جدَّتي .. أبي موجود في البيت اذهب كلِّمه .. وتركته ومشيت تماماً كما قالت لي جدتي) .

ولم يدر بعد ذلك إلا أنه يقف على جانب الطريق وحيداً .. ولكن كيف ؟ ومتى ذهبت ؟ .. لا يدري ، وعاد إلى المنزل وكأنه لم يحدث شيء .. لقد كان في حالة من اللا مبالاة بعدما قتلت فيه كل حس ، فلم يعد يتوجَّع ، ولم يتألَّم ، ولكن على العكس ، لقد خيَّم عليه جوٌّ من المرح وعلت ضحكاته تمزِّق ستائر الليل الأليم فدخل على الفور نور الفجر الجديد .. كانت تغمره فرحة كبيرة ، وعاد إلى معابد حبه فأزاح عنها الهموم التي حمَّلها إياها وتوقَّف قطار أحزانه في محطة النسيان ، وبعد عدة أيام أفاق من خمر الصدمة ، ولكن لم يعد إلى ما كان عليه من قبل اللقاء الأخير ؛ لأن الصورة التي كان قد حفرها في خياله وعاش بها ومعها .. الصورة التي تحدَّى بها الزمن .. الصورة التي حطَّمت

كل يأس .. الصورة التي يرجع إليها كل ما وصل إليه يراها اليوم باهتة الألوان .. معدومة الملامح .. فاترة الأحاسيس .

لكن قلبه عاد فالتمس لها الأعذار ، وأوَّل كلَّ ما حدث إلى وقع المفاجأة ؛ فعاد يصفح عنها رغم كلَّ ما حدث ، ولكن لن يغفر لها ما عاش لو أنها ظنت به سوءاً ، ولو للحظة واحدة فهذا ما لا يستطيع أن يغفره أبداً ، فمهما كان عذرها .. وبرغم حبه لها إلا أنه لم يسمح لكائن من كان أن يلِّطخ صفحته البيضاء التي وهب لها حياته حتى ولو كان الجاني ... ولم يكن سكوته على عذابه إلا لأنه يعلم أنها تبادله الحب .

قرَّر أن يقطع شكه باليقين ، وعاد ينتظرها ثانية .

(كان كل جسدي ينتفض ، وعقلي مشتَّت .. لم أفهم من درس الفيزياء شيئاً .. وعندما عدت حكيت لجدتي ما حدث فحذَّرتني من الحديث معه مرة ثانية .. كنت سعيدة بلقائه والكلام معه ، وكنت أتمنَّى أن أراه ثانية ، وأتكلم معه .. كنت أمنِّي نفسي أن تنجح خطة جدَّتي ويكلِّم بابا ، ولا أضطر إلى ...)

دق جرس الباب ، بسرعة أخفت القصة ثم ذهبت لترى من بالباب .

* * *

١٣

عملت حنان نسكافيه لنفسها ، وشاياً لنهى .

– أنا أريد نسكافيه .

– أنت شربت كوباً في الصباح ، وكوباً بعد الظهر يكفي هذا اليوم .. أنا لا أريدك أن تدمني النسكافيه .

– النسكافيه إدمان ؟!

– نعم .. إدمان .. ألم تقرئي هذا في الفيس بوك .

قالت نهى وهي تضحك : أنا غلطانة أن علمتك الفيس بوك ، وعملت لك صفحة عليه .

استغلَّت حنان مرض أبيها فذهبت لزيارته .

كانت تُعِدُّ نفسها ذاهبة للقائه بالفعل .. لبست أجمل فساتينها ، وأحذيتها ، وحملت أجمل حقائب يدها ، ووضعت كثيراً من المكياج لتظهر جمالها .. حتى الرائحة الزكية لم تنسها (مجنونة أنت يا حنان ماذا تفعلين ؟ .. ماذا لو رآك هشام ؟ هل صدقتي أنك ذاهبة للقاء أحمد حقيقة .. وحتى لو قابلتيه ماذا أنت فاعله؟)

فاجأها السؤال واحتارت في الإجابة عنه (حقيقة .. ماذا لو قابلته؟...)

منذ وطئت قدماها الحي القديم ، وبدأت تلتقط صوراً متتالية .. كانت تريد أن تلتقط صوراً لكلِّ شيء رآه يوماً أو مرَّ به .. في البداية كانت مترددة أن يدرك أحد ما تفعله .. صور لكلِّ شيء محطة الأتوبيس .. المحطة المقابلة .. شارع الكورنيش .. محل عصير القصب .. البيوت القديمة .. الشجرة التي كان يقف بجوارها ، بعد أن التقطت للشجرة عدة صور اقتربت منها وتأملتها جيداً وتمنَّت لو لمستها (هذه الشجرة تعرفه .. ليتها تحكي لي عنه كل ما رأته ..) .

أخذت تناجي الشجرة (تري كيف أصبح شكله الآن ؟ .. كان أسمر نحيفاً بعض الشيء .. أطول مني بنحو ١٠ سم .. لا .. أقل من هذا كثيراً ...) .

عندما لاحظت أن المارَّة يكثرون من التلفت تجاهها وأن بائع عصير القصب بدأ يراقبها سارت بسرعة (هذا الطريق الرئيسي الذي كان يسير فيه ..) .

أخذت تتأمل الطريق ومعالمه (لو ينطق هذا الطريق ، وتلك البيوت .. الحمد لله إنها لم تتغيَّر هي كما هي إلا بيتاً قديما حلت محله عمارة كبيرة) .

تنظر إلى شرفات المنازل كأنها تبحث عنه (ترى أين يسكن ؟ .. ليتني أعرف بيته القديم ...) .

أطالت الوقوف في المكان الذي رأته فيه آخر مرة ، والتقطت له عشرات الصور .

وتكبَّدت مشقة السير إلى بيت زميلتها التي كانت تأخذ فيه درس الفيزياء ، والتقطت عدة صور له ولمكان وقوفه وهو ينتظرها ، والمكان الذي كلَّمها فيه .. كانت سعيدة نشوانة رغم خوفها .. كانت تحتال في التقاط الصور وتتظاهر بالبحث عن رقم في التليفون ، وبعد أن تلتقط عدة صور تضع التليفون على أذنها ، وأحياناً تتمتم ببعض الكلمات المسموعة .

أطالت الوقف في المكان الذي تم فيه المشهد الأخير من الجزء الأول من القصة .

لقد أمضي وقت ما قبل اللقاء في تنسيق الكلام ، وترتيب العبارات حتى لا يضيع آخر محاولة بحمق وسذاجة ، وأشرقت شمس اليوم لتتم بهاء الكون الذي ارتدى أفضل أسماله في عيد ميلاده ، ويا لها من مصادفة عجيبة أن يكون يوم اللقاء في عيد الربيع .. تداعت ظنونه إذ ظن أن اليوم سيصبح عيد ميلاده الحقيقي بعد أن تطفئ له حبيبته شموع أحزانه وتضيء له شموس

الحب ، مثله في ذلك مثل الكون اليوم ، وقد أبدله الربيع حُلة سندسية رائعة بتلك الحُلَّة المهلهلة البالية .

إن الربيع يذكِّره بحبيبته التي أخذت من الكون أحسنه وأبهاه بَيْد أنَّ رداء الكون عمَّا قليل سوف يفقد ألوانه وجماله ، وحبيبته دائمة النضارة والجمال ؛ فكلُّ أيام العام أعيادها .

ارتدى أجمل أسماله، ورجَّل شعره حتى يليق بهذا الاحتفال الذي لا يتكرَّر كثيراً ، إنه اليوم مملوء ثقة وثباتاً وأملاً وأقل حيرة ، وما ينقصه سوى القول الفصل .

لقد تعجَّل اللقاء فذهب قبل الموعد بعدة ساعات فأخذ يجوس بين أحضان الطبيعة .. بين الخضرة الوارفة التي تزيِّن الكورنيش، والماء الصافي الذي يداعب الشاطئ .. كان يشعر بأن الكون يشاطره أفراحه ؛ فكلُّ ما يقع عليه بصره جميل حتى ما كان يكرهه بالأمس أصبح جميلاً اليوم .. حتى اقترب الموعد فودَّع الطبيعة إلى من جعلته يشعر بها .

سار حتى وقف في مكانه المعهود .. أخذ العد التنازلي لمجيئها، ولثقته بنفسه وثباته ، وعاد إلى حيرته وظنونه واضطراب أفكاره .. حتى آنسها آتية .. كانت في غاية الجمال حيث تبدو في كامل زخرفها .. تهللت أساريره فتماسك فَكَّاه ، وصارا فكَّاً

واحـداً ، ولـسانه بينهمـا قـد تجمَّـد ، ودقـات قلبـه تنقـر فـي صـدره بعنـف وخـوف، وعينـاه تحجرتـا ، ولكنـه قـاوم وقـاوم ، وهـي تقتـرب وتقتـرب حتـى قاربتـه ؛ نطـق باسـمها بـصوت يـشوبه الخـوف والرجاء، ولكنها لم تُعِرْه التفاتاً .. نادى عليها ثانية ربما لم تسمعه، ولكنها لم تكف عن سيرها كأنها لم تره ، ولم تسمعه .. استجمع كـلَّ قـواه ونـادى عليهـا ولكنهـا كانـت قـد مـرَّت سـريعاً كـوميض البرق.. حاول أن ينطلق نحوها ، ولكن قدميه لم تسعفاه .. حاول أن ينـادي عليهـا مـرة رابعـة ، ولكـن أبَـى لـسانه أن يتحـرك .. تخبطـت أفكـاره ، وراحـت ذكرياتـه يـصارع بعـضها الـبعض .. تضاءل أمام نفسه ، واحتقره عقله .

راح يجر قدميـه إلـى منزلـه عنـدما تـراه تحـسبه سـكران ومـا بـه سكر، تحسبه مجنوناً وما به جنون .. نادى عليه بعض أصدقائه، ولكنـه لـم يـسمعهم حتـى عاد إلـى المنزل ، ولا يـدري كيف عـاد .. ومن ذلك اليوم ، وأنتم كما ترون يأتي إلى هنا أصيل كل يوم هرباً مـن أفكـاره وهواجـسه ، وطمعـاً فـي النـسيان ، بيـد أنـي لا أظنـه يستطيع ذلك .

(ليتني كلَّمته .. لم أكن أعلم أنه سيتعذَّب هذا العذاب ، بل لم أكن أعلم أنه سينتقم مني هذا الانتقام) .

عنـدما تـذكَّرت نهايـة القـصة تبـدَّلت نـشوتها إلـى جـرح غـائر ، وابتـسامتها المـشرقة إلـى عبـوس قـاتم .. وضـعت تليفونهـا فـي حقيبتها بسرعة ، وذهبت لزيارة أبيها المريض .

* * *

١٤

بعد أن قامت بأعمال المنزل جلست لتستريح .. فتحت " الفيس بـوك " كعادتهـا بعـد أن أنهـت نهـى امتحاناتهـا ، وتفرَّغـت للنـوم والتليفون ، أما محمد فبعد أن خطب شيرين فلم تعد تراه إلا نائماً، أو متحدِّثاً في تليفون أو متأهباً للخروج .

تهـاني بأعيـاد المـيلاد ، ودعـوات بالـشفاء للمرضـي ، وقـراءة "البوسـتات" وكتابـة بعـض كلمـات المجاملـة والتعليقـات .. بـدأت تـشعر بالملـل ، وقبـل أن تغلـق التليفـون طـرأت علـى ذهنهـا فكـرة غريبـة (لا .. لا يصـح .. لـو عـرف هشام أو أحد الأولاد ستكون مـشكلة كبيـرة .. ربمـا خـرِب هـذا الموضـوع البيـت .. ليـست هنـاك مشكلة علـى الإطـلاق .. ومـن يُعْلِـم هشاماً أو الأولاد؟! .. لا أحد يعلم عنـه شيئاً ، ولـم يسمعوا باسمه من قبل .. جرِّبـي لـن تخسري شـيئاً .. تـرى أيـن هـو الآن ؟ هـل أصـبح شـاعراً كبيـراً كمـا كـان يحلم؟ .. هل تزوَّج ؟ وبمن ؟ ...) .

ابتـسمت (هـل تـزوَّج بوفـاء بطلـة قـصته ؟ .. سـأبحث عنـه فـي الفيس بوك .. أكيد لـه صـفحة فيه .. كلُّ الناس لـهم صـفحات ..)

بعـد أن اطمأنـت أن محمـداً ونهـى غارقـان فـي النـوم ، ولـن يستيقظا إلا مـع العصر كالعـادة ، فتحـت الفيس بـوك ، لـم تحـتج لوقت لكي تتذكَّر اسمه ، أحمد علي الجوهري .

كانت خائفة .. مضطربة .. متردِّدة .. تحس أنـها عادت مراهقة مرة ثانية .. تتمنَّى أن تراه .. وتخشى أن تراه .. تخشى أن تتعذَّب ثانيـة (أي نَعَمْ هو عذاب لذيـذ .. لكنـه عذاب ووجـع قلـب " أَمـرَّ عذاب وأحلى عذاب .. عذاب الحب للأحباب ") .

قامت لتطمئن علـى نـوم أبنيهـا ، ثـم عـادت كتبـت اسـمه بـسرعة قبل أن تتراجع .

أسماء كثيرة تشبه اسمه (ربما كان أحد هؤلاء .. لا .. لا .. لا يحمل أحدهم اسمه لكن الصورة مختلفة .. كان أسمر سمرة النيل .. نحيفاً كالنخيل .. رقيقاً كالنسيم .. صامتاً ك ك ك كالليل ...)

ضحكت وقالت (ما هذا الذي أقوله ! هل أُصْبِح مثله شاعرة ...)

بعد بحث طويل لم تعثر عليه .. تعبت عيناها .. تصدَّع رأسها.

نهضت لتقوم بباقي أعمال المنزل .

بعد الغداء نزل محمد وجلست نهى مع حنان يشاهدان التليفزيون .

قالت حنان بنبرة حنونة : ما أخبار تامر ؟

- تامر !! ما المناسبة ؟
- أبداً ، ما آخر مرة قابلتيه فيها ؟
- لماذا هذا السؤال يا ماما ؟
- قولي لي الحقيقة .. أنا أمك .. لا تخفي عني شيئاً .
- تعديني أنك لا تغضبي مني ؟
- أعدك .. ليست هناك واحدة تحبك أكثر مني .
- الحقيقة أني قابلته عدة مرات .
- أين ؟ ومتى ؟
- كان ينتظرني في نفس المكان الذي رأيته فيه أول مرة .
- وماذا قال لك ؟
- أنت وعدتيني أنك لن تغضبي ...
- تكَّلمي يا نهى وكفى مزاحاً .
- في البداية كنا نتحدث عن الدراسة والثانوية .. كلام عادي.. وبعد ذلك صرَّح لي إنه معجب بي.
- وماذا قلتي له ؟
- أحسست بالخجل الشديد ، ولم أقل له شيئاً .
- وبالطبع أعطيتيه رقم تليفونك ، وأضفتيه على الفيس ، والواتس...
- بصراحة .. نعم .

- كم مرة كلَّمك فيها ؟
- كان يكلِّمني بعد كل امتحان ليطمئن عليَّ .
- وبعد الامتحانات .
- كلَّمني كذا مرة .
- يكلِّمك بالليل بعد أن أنام .
- نعم .
- وطبعاً تظل المكالمة طول الليل .
- ليست مكالمات تليفونية ، إنما دردشة على الماسنجر .
- وفيم تتحدثان ؟
- كلام عادي .. لغو .
- وكلام الحب ؟
- ....
- هل خرجت معه ؟
- مرة واحدة .
- وأين ذهبتما ؟
- قابلته قريباً من بيت تغريد زميلتي .
- وماذا فعلتما ؟
- أبداً تكلَّمنا بعض الوقت ثم ...
- هل رآكما أحد ؟

- لا .. كان لقاء سريعاً .
- أمسك يدك ؟
- سلَّم علي سلام عادي .
- لماذا لم تخبريني ؟
- خفت أن تغضبي .
- ومتى ستقابلينه مرة ثانية ؟
- هو طلب مني كثيراً .. لكني رفضت .
- وما آخر هذا الموضوع ؟
- أبداً .. لا شيء .
- أنت تعرفين لو أن أباك أو أخاك عرف هذه الحكاية ماذا سيحدث .
- تعملون معي ما عملتموه مع سها ...
- وأكثر .. سنأخذ منك هذا التليفون .. ولن تخرجي إلا معي، ولن .. ولن ....
- أنا أعرف .. أعرف .
- والله لم أقابله إلا مرة واحدة لمدة دقيقتين فقط.
- هل يرضيك أن نُفْضَح وتسوء سمعتنا ؟ .. يكفي ما حدث لنا من وراء أختك سها.

دخلت حنان وأحضرت مصحفاً وقالت : احلفي لي يا نهى على هذا المصحف أن تقطعي علاقتك بتامر للأبد .. لا كلام في التليفون ، ولا كلام في الفيس ، ولا مقابلة .. ولا أي علاقة نهائياً.

- ماما .. أنا لا أفعل شيئاً خطأ .

- يا حبيبتي أنت مازلت صغيرة ، وهذه العلاقات ستنتهي وتنسى .. كل البنات يمررن بهذه المرحلة .. أنا أمك وأعرف مصلحتك .. وأنا أعدك أني لن أقول لأبيك أو أخيك شيئاً.

- يا ماما .. كل زميلاتي يعرفن أولاد ، ويخرجن معهم.

- البنت المؤدبة التي تخاف على سمعتها ، وسمعة أهلها لا تكلم ولداً غريباً .. كل الأولاد يتسلَّون بهذه العلاقات ، وبعدما تتعلق البنت بأحدهم يتركها ويعمل علاقة مع غيرها .. وأنت تعرفين ماذا فعل خالد مع سها .

- والله تامر ليس كباقي الأولاد .. إنه مؤدب جداً .. أنا أعرفه من زمان طويل .

- كانت سها تقول هذا عن خالد .. كل الأولاد يتظاهرون بهذا حتى يوقعوا البنات ...

- تامر إنسان مختلف .

- إذا كان إنساناً مؤدباً كما تقولين فلماذا لم يكلم أباك أو أخاك؟

– هو كان ينوي أن يفعل هذا بعد أن نعرف نتيجة الثانوية، وأي كلية سيدخل .

– هل عنده شقة ؟

– شقة ماذا يا ماما ؟! بالطبع لا .. لكن ...

– أنا أسالك سؤالاً واحداً يُبيِّن لك إذا كان تامر ككل الأولاد أم ولد مختلف .

– أنا أعرف السؤال الذي ستسألينه .. هل يرضى تامر أن تكون لأخته علاقة مع ولد ؟

– بالضبط .

– بالطبع لا ..

– يا نهى يكفي ما حدث لنا من وراء سها ، أباك أصيب بالسُّكَّر ، واضطررنا إلى ترك شقتنا في مدينة نصر لنسكن في سكننا هذا ...

– يا أمي أنا أعرف كل هذا ، أنا عشت هذه الأحداث معكم .

– ولكنك لم تتعلمي منها شيئاً .

– مشكلة سها كانت ورقة الزواج العرفي ..

– مشكلة سها أنها لم تسمع كلامي ، وأخفت عني حقيقة علاقتها بخالد .

– كانت خائفة أن تمنعيها من لقائه وتخبري أبي .

- ماذا كانت النتيجة ؟
- موضوع تامر مختلف تماماً ..
- ما رأيك لو حكيت لأخيك محمد الحكا... لا .. لا ..
- أخـي محمـد !!! مـاذا تقـولين يـا مامـا ؟! أنـت تريـدين تـدمير حياتي .. محمد أخي !!
- معك حق .. محمد لا يصلح لهذه المهمة .
- لا تـشغلي بالـك يـا مامـا .. الموضـوع مجـرد صـداقة بريئـة .. والله لا نفعل شيئاً حراماً .. مجرد دردشة بين أصدقاء .

***

١٥

- (ها هو .. معقول .. إنه أحمد بالفعل) .

كاد قلبها ينفطر ، قامت تطمئن على نوم ولديها مرة ثانية .

- (هو أحمد .. الشارب لم يغير كثيراً من ملامح وجهه .. أصبح بديناً وقد كان نحيفاً جداً ...)

قامت للمرة الثالثة لتطمئن لنوم ولديها ، وزيادة في الاحتياط دخلت حجرتها ، وأغلقت الباب من الداخل بالمفتاح ، رغم أنها تعلم أن أحداً لن يفتحه قبل أن يستأذن .

(زيادة في الاحتياط .. تغيَّرت ملامحه كثيراً .. حتى اسمه تغيَّر) .. أبو عمار الجوهري .. خريج دار العلوم .. (أول مرة أعرف أنه دخل دار العلوم ، كنت دائماً أتمنَّى أن أعرف أي كلية دخل .. كلية دار العلوم .. طبيعي هو شاعر .. (شاعر ومدير قصر ثقافة الجيزة ...)

أخذت تشاهد صوره وتري فيديوهاته وهو يلقي الشعر في المنتديات والصالونات والمؤتمرات ...

(رقيـق وحـالم كمـا هـو .. تـرى هـل مـا زال يحبنـي ؟ .. فـيمن يكتب هذه الأشعار الرقيقة ؟ ..) .

تأثرت كثيراً بالشعر الذي كتبه فيها قديماً :

أيا عين جودي ولا تجمدي *** بالدمع على الحبيب الأول

جودي بالدموع رخيصة *** فهكذا الدهر يفجع ويبتلي

كوني لا أبكي فتلك شيمتي *** ولكن الدمع للحزن يغسل

الصف الثاني الثانوي

بذر في قلبي بذور حبه *** وكان دمي ودموعي لها شراب

ودرَّعتها من الناس شوقاً *** وأسدلت للرياح عنها كل باب

وأضأت لها شبابي شمعاً *** إذا الشمس غربت أو القمر غاب

حتى مدَّت في جسدي جذوراً *** وعانقت أطرافها عنان السحاب

أجازة الصف الثاني الثانوي

التقينا بعدما طال الفراق *** وذقنا للهوا أحلى مذاق

فكم حلمنا بهذا اللقاء *** في النهار يُقَّظاً وهُجَّعاً في المساء

تحدَّث الصمت وعن القلب ناب*** والكلام في لهيب الشوق ذاب

وبريق العيون انتشر سناه ومحا***ليل الفراق وكشف جمال الحياة

طوينا الدهر في نظرة *** وسقينا كدرة الليالي خمرة

الصف الثالث الثانوي

(أكيد كتب هذا بعد كلامه معي أول مرة) .

سالت الدموع من المآقي *** حتى أذبلت ورد الخدود

وابيضَّت شعور الرأس *** بعدما كانت من قبل سُود

وانقصم الظهر وانحنى *** وكنت معتدل الهامة شامخ العُود

والعين أسدلت جفنها عن *** كل جميل سواه في الوجود

والقلب مات قبل أجله *** وكان يعيش بالفرحة حياة الخلود

وغربت الشمس بعد شروقها *** وغدا الظلام في حياتي يسود

فالفجر في كل يوم لا أراه *** واعتاد معي إخلاف الوعود

فالحياة للفجر ولاَّدة *** وحياتي للفجر ليست ولُود

الصف الثالث الثانوي

(أكيد كتبها بعد رفضي الرد عليه)

أغداً يحيا هذا الأمل المقبور *** أغداً يستفيق العقل المخمور

أيعود الأمل الضائع أيحيا الشعور *** أتعود دقاتك تغرد كالطيور
أغدا شاطئ أمسي بعد طول بحور *** أغداً أرى في النهار نور
عاهدتني يا قلب على النسيان *** وتعود تبدل جنتي تنُّور

الصف الثالث الثانوي

لم تلتفت إلى تعليق أصدقائه الساخرة ، ولا تندرهم عليه بأنه لم يكن يجيد السباحة في بحور الشعر ، ورده إنها مراهقات شعرية قبل النضج والدراسة الجامعية .

سيطر عليها شعور جارف أنه ما زال يحبها ، وإلا مَا تحمَّل سخافات أصدقائه وواصل نشر أشعاره القديمة .

ولَمَ نشر ألبوم صوره القديمة (أنا أعرف هذه الصورة .. أراها لي في المدرسة يوم ملء استمارات الابتدائية .. وهذه صورة الإعدادية يبدو فيها جميلاً ووسيماً .. هذه صورته في الثانوية العامة ، في الفترة التي رأيته فيها وأنا ذاهبة لدرس الفيزياء .. وهذا القميص رأيته به كثيراً في الجامعة ... هذه الصورة أحلى صورة له .. وهي التي ظلَّت عالقة دون غيرها بخيالي أتذكرها حين أفكِّر فيه .. كان شاباً مؤدباً رقيقاً .. هل أرسل له تعليقاً على هذه الصورة ؟ أقول له : فيمن كنت تفكِّر في هذا الوقت ؟ .. ما هذا العبث ! .. كتاباته على الصور تؤكد اعتزازه بهذه الفترة أكثر من

غيرها .. هـي فتـرة ثـورة الحـب .. هل أرسـل لـه صـورتي فـي هـذه الفترة ؟ .. هل أُعرِّفه بنفسي وأرسل لـه طلـب صـداقة .. الرغبـة في محادثته تقتلني ...) .

فزعت عندما سمعت طرقات على بابها ، فألقت التليفون من يدها.

* * *

١٦

- (ترى ماذا يكون شكل زوجته ؟ .. هل هي جميلة كما وصفها في قصته .. لم ينشر لها أي صورة ، إنما من صور أبنائه وبناته الصغار يمكن أن أتخيل إنها متوسطة الجمال .. أنا أجمل منها ..) .

قامت حنان وأخذت تتأمل وجهها في المرآة .

عندما رأت شحوب وجهها ، وظهور آثار الزمن عليه فزعت جداً، وأشاحت بوجهها عن المرآة .

(أنا ما زلت جميلة .. أنا فقط متعبة .. لو أي امرأة رأت ما رأيته في حياتي .. لكن الحمد لله ما زلت جميلة .. ما زلت جميلة يا أحمد .. ولن أكون كما وصفتني في قصتك ...)

نهضت ودخلت الحمام .. غسلت وجهها عدة مرات بالماء الساخن وبصابونة خاصة ، وبعد كل مرة تتأمل وجهها في المرآة .. دخلت حجرتها ، وأغلقت الباب بالمفتاح ، وبدأت تضع

المكياج لتخفي التجاعيد وتظهر جمال الوجه .. هي خبيرة في وضع المكياج كانت تضعه منذ دخلت الجامعة فكانت تبدو باهرة الجمال ، وبعد أن قرأت قصته أصبح عندها هاجس التجاعيد وعلامات الشيخوخة التي وصفها بها في قصته ، فأكثرت من وضع المكياج ، وكلما ظهرت علامات الشيخوخة أكثرت من وضع المكياج لإخفائها ظلَّت سنوات طويلة يطاردها هذا الهاجس حتى أنستها مشاكل زوجها وأولادها النظر الدائم في المرآة وعد الشعرات البيضاء وتعقُّب التجاعيد وتغضُّن الوجه .

-(أنا ما زالت جميلة يا أحمد .. لم تظهر عليَّ الشيخوخة .. أنا ما زلت مثار إعجاب كل من يراني ...)

عادت تشاهد صفحة أحمد بعدما حاولت أن تستعيد جمالها الغابر (كان نحيفاً وأسمر ، ويلبس ملابس بسيطة .. لم يكن جميل الشكل ، ولا مهندم الثياب .. كانت صديقاتي يتعجبن من حبي له .. تغيَّر كثيراً ، وصار يحسن اختيار ملابسه ...) .

سمعت صوت جرس الباب ، لا تدري لماذا ظنت أن القادم هو زوجها ؛ أغلقت التليفون بسرعة ، ومسحت المكياج .. كادت تقطِّع وجهها .. وكلما طال صوت الجرس جنَّ جنونها .. هرولت نحو الباب .. كادت تسقط وهي تجري فزعة .. وعندما فتحت الباب لم تجد أحداً !

ألقـت بنفـسها علـى أول كرســي مجهـدة .. تجاهـد فــي تجميــع أنفاسها الهاربة .

-(ما هذا الجنون الذي أفعله .. أحمد .. فيس بوك .. مكياج .. هل جننت يا حنان ؟! أكيد جننت .. هشام والأولاد ...)

بعد أن استراحت نهضت لتؤدي أعمال البيت التي لا تنتهي .. كان يسيطر عليها الحزن والأسى .. تحسُّ أن عمرها ضاع هباءً، وأنها كُتِبَ عليها الشقاء .. أيام سعادتها قليلة لا تكاد تذكر منها شيئاً ، حتى روعة حُب الشباب .. أجمل لحظات العمر حوَّلها من أحبَّتْ إلى ذكرى مؤلمة حزينة .

في هذه الليلة حلمتْ بأحمد يعتذر لها ، ويستسمحها .. تعاتباً .. ثم تصالحها .. ثم تذاكرا أجملت لحظات الحب .. أجمل لحظات الحياة ..

زارت معه مواطن الذكريات القديمة .. بيت زميلتها التـي كانـت تأخذ معها درس الفيزياء .. أعادا مشهد اللقاء الأول .. وقف بعد البيت بخطوتين وأتت هي من بعيد نظر إليها غضَّت طرفها .. وهمَّت بدخول بيت زميلتها نادى عليها برقة : " حنان " .. لم تجبه ودخلت البيت دخل وراءها وجذبها من ذراعها وقال لها : " لن أتركك تهربين مني هذه المرة " .. ذابت قطعة السكر في

كوب الشاي الساخن .. ثم ذهب لينتظرها في المشهد الثاني .. عندما مرت به نادى عليها .. وقفت ..

– كنت أريد أن أتكلَّم معك في موضوع.

قالت بجفاء : موضوع ماذا ؟

تحشرجت الكلمات في فمه .. لم تمهله حتى يكمل كلامه فقالت له وهي تغالب الضحك وتتظاهر بالجديَّة : اذهب وكلم بابا ، وتركته ومشت بسرعة .. جرى وراءها .. وهو يقول : هذا كان زمان .. أمسك بها وهي تحاول أن تفلت من قبضته ، ولكنه لم يتركها تفلت من يده .. استسلمت له فانفجر بركان أذاب المحيطين المتجمدين .. عندما رأت زوجها تجمَّد البركان ، وكوِّرت الشمس وسجِّرت البحار ، وانكدرت النجوم وطويت السماء كي السجل للكتب .

* * *

١٧

عندما عاد هشام بالغت في الاهتمام به ، وإن لم يدرك هذا الاهتمام ، ولم يغيِّر عاداته .. الاغتسال فور دخوله البيت ، وتبديل ثيابه ، ثم التهام الوجبة الدَّسمة ، وإن بدأ يخفف من تناول الدهون والحلوى في الشهور الأخيرة استجابة لأوامر طبيب القلب والأوعية الدموية .. السؤال عن الأحوال العامة دون الدخول في التفاصيل ، وذكر المشاكل .. مشاهدة التليفزيون وخاصة مباريات كرة القدم .. ثم الجلوس إلى تليفونه حتى النوم .

- ما رأيك لو ذهبنا غداً إلى كازينو الشجرة كما كُنَّا نذهب زمان؟

- كازينو ماذا ؟ أنا أعمل مثل الثور طوال الأسبوع ، وأحتاج إلى الراحة حتى أستطيع أن أواصل ، وأنت تعلمين لم تعد الصحة كما كانت .. وقلبي يؤلمني مع أقل مجهود .

- أنت مازلت شاباً ياحبيبي .. هل تذكر أيام خطبتنا ، وبعد زواجنا عندما كنا نسير على الكورنيش من التحرير إلى المنيل ولا نحسُّ بالوقت ولا بالتعب ؟

- رحم الله هذه الأيام .. كنَّا شباباً ، ولم نكن قد حملنا الهم بعد.
قالت مازحة : من تقصد بالهم يا هشام ؟
قال بتأثُّر : أنا أعلم أني مُقصر معكم ، وأنك تتحملين كثيراً .
قال هذا وهو يقبل رأسها.
- يوم الأحد القادم فرح سميرة بنت سعاد بنت عمك ، وهي دعتنا إلى الفرح في نادي ...
- يوم الأحد أكون في السويس .
- اطلب إجازة .. أنت لا تأخذ إجازات أبداً .
- العمل في الشركة كثير هذه الأيام ، والإجازات ممنوعة .. خذي الأولاد واذهبي أنت .
- ووالدتك التي لم تزرها منذ أكثر من شهرين ؟
- البركة فيك .. زوريها ، وأعطيها كل ما تحتاجه .
- أنا لا أنتظر إذنك .. أنا أزورها دائماً .. لكنها تريد أن تراك وتسألني عنك كثيراً ، وأنا تعبت من كثرة الاعتذارات نيابة عنك .
- إن شاء الله أزورها قريباً .
- غداً إن شاء الله .
- ربنا يسهل .. تصبحين على خير .

***

١٨

عندما جاء العروسان هبَّ الجميع وجرى ليرى الزفَّة ، وظلَّت في مكانها (من ٢٦ سنة كان فرحي بعد سنتين خطبة .. كنت سعيدة جداً في هذا اليوم .. وكان هشام سعيداً كذلك .. كان أحلى فرح . وأجمل أسبوع عسل أمضيناه في شقتنا ، ثم سافرنا إلى السويس المدينة الهادئة الجميلة .. عشت فيها أحلى سنوات زواجي .. ثم تحوَّلت العروس إلى أم ، ومرضع ، ودادة ، وممرضة ، ومُدَرِّسة بالإضافة إلى طبَّاخة ، وغسَّالة ، ومكنسة ، وزوجة ...)

عندما مرَّت بها الزفَّة ، وحيَّت سميرة وزوجها (جميلة سميرة وشابة .. كنت في سنها أجمل منها كثيراً .. كنت عندما أسير في الشارع يقف الشارع على رِجْل ، وأرى نظرات الإعجاب ترتسم على وجوه الجميع كباراً وصغاراً .. كانت أياماً جميلة ليتها دامت .. لكنها الأيام لا تدوم لأحد ...)

رأت مشيرة التي كانت سبباً في زواجها .

– أهلاً يا مشيرة .. كيف حالك ؟

– أهلاً يا حنان .. أين هشام ؟

– أنت تعرفين أخاك .. مشغول دائماً بالعمل .

– حتى فرح ابنة بنت عمه أيضاً ؟

– احمدي الله أنه حضر فرح ابنك العام الماضي .

– لو لم يحضر فرح وليد كنت خاصمته العمر كله .

موسيقى صاخبة .. ورقص جماعي وفردي .. وطعام وحلوى .. عادت مهمومة كأنها عائدة من أداء واجب عزاء .. (كل الناس كانت تسأل عن هشام .. تعبت من الدفاع عنه والتماس الأعذار له .. كل عائلة كانت تجلس على منضدة مجتمعة ، أما أسرتي .. زوجي غائب .. وسها أجبرها زوجها على الجلوس مع أمه وأخوته .. ونهى مع العروسة لم تفارقها تغني وترقص .. أما محمد فهذا يوم ذهابه إلى خطيبته كأنه لا يراها إلا في هذا اليوم ورفض أنا يأتي معنا .. هو مثل هشام لا يعرف الواجب ، ولا تجدينه عندما تحتاجينه .. كان شكلي سيئاً وأنا أجلس بمفردي كالأرامل والمطلقات .. حتى هؤلاء يجلس معهن أهلهن وأولادهن...)

***

١٩

بعد أن أمضت ساعات النهار كلها في تصفح موقعه على الفيس بوك :

– (لقد تغير كثيراً ، ما هذا الذي يكتبه ، وينشره ، ويعلق عليه؟! .. ما هذه الأعداد الكبيرة من الصديقات والمعارف ؟! اللاتي ليس من بينهن اسم إحدى نسائه : زوجته ، بناته ، أخواته .. إنه لا يذكر حتى أسماءهن إنما يكتفي بذكر درجة القرابة أو المصاهرة فقط .. كل سنة وأنت طيبة أختي العزيزة .. مبارك النجاح حبيبة قلب أبيها .. البقاء لله توفيت بالأمس زوجة عمي .

أما صديقاته الأخريات : ضحكات .. نكات .. بوستات .. صور .. صور في كل مكان يتواجد فيه .. ندوات .. لقاءات صحفية .. أمسيات شعرية .. مصيف .. حتى العُمرة كأنه ذهب للتصوير فقط !! .. لم يعد جميلاً كما كان زاد وزن الجسم ، وكبر حجم الكرش .. وابيض شعر الرأس وسقط معظمه .. ووضع

نظـارة أخفـت نـصف وجهـه .. أمـا التجاعيـد التـي تتبـأ لـي بهـا فليسأل مرآته عنها ...) .

وفـي صباح اليوم وبينما أنا جالس فـي مكتبـي فـي الجريـدة التـي أعمـل بهـا أُعـدُّ المقالـة التـي سـوف تنـشر إذ قـرع البـاب فأذنـت للطارق بالدخول ، وإذا بالطارق امرأة في خريف حياتها؛ فقد غزت التجاعيد كلَّ وجهها ، وانحنـى عودهـا ، وأطـلَّ مـن رأسـها الـشعر الأبيض الذي كأنـه التهم الشعر الأسود، ولـم يُبْقِ لـه علـى بقيـة .. كانـت امـرأة بـلا حيـاة ، وقفـت أمـامي وأخـذت تحـدِّق فـيَّ تـارة ، وتقلِّب نظرها في الحجرة تارة أخرى .

- (هل هذا الكلام يكتبه إنسان لمن يدعي أنه يحبها ؟ ويتعذَّب بحبها ، ويموت لكي يراها .. عندما قرأت هذا الكلام تحوَّل كلُّ الحب الذي كنت أحبه له إلى كره بل إلى ثورة وغضب ..)

همَّت أن تطوي القصة ولا تكمل قراءتها لأنها ذكرتها بأسوأ أيام حياتها الأولى قبل الزواج ، ولكنها قرَّرت أن تكمل قراءة بقية القصة بسرعة دون التوقُّف عند ألفاظها أو أحداثها بالتحليل .

أمرتها بالجلوس فجلست وسألتها عن حاجتها فقالت في دهشة: حاجتي ؟! ألا تعرفني ؟!

قلت : لا أظن ذلك ، ماذا تريدين ؟

فأطرقت طويلاً كأنها تفكر وغشي وجهها المتجعِّد كآبة كأنها حُمِلَّت أوزار العالم كله ، وسبحت عيناها في لُجَّة من الدموع التي حاولت أن تداريها ، ولكنها سحَّت على وجهها كأنها السيل الطامي . هدَّأت من روعها ، وقلت لها : من أنت ؟ وما حكايتك؟

قالت بصوت متهدِّج ، وقد تماسكت بعض الشيء : تعدني إن قصصت عليك قصتي أن تقتص لي ممن جنى عليَّ .

قلت : إذا كان في استطاعتي فسوف أفعل .

قالت بصوت أسيف : منذ أكثر من عشرين خريفاً كنت أحب شاباً فيه من كلِّ شيء جميل علم وخلق ، ولكن اللعنة على الكبر والغرور والغطرسة التي كنت فيها آنذاك فعندما وضع قلبه بين يدي أحسست أن القوة التي كانت فيه انهارت ، والعزة التي تملؤه زالت ؛ مما أثار كبري وغروري فطرحت قلبه وراء ظهري ، وأنا متأكدة بأنه سوف يضعه ثانية بين يدي ، ويتوسَّل إليَّ أن أقبله منه .

- (هل لأني رفضت التحدُّث معه أصبح متكبرة ومغرورة ؟! .. عجيب أمر هؤلاء الرجال .. وماذا كان ينتظر منِّي ؟! .. أن كلِّمه

وأخرج معه ، وألبِّي رغباته .. ولو فعلت ذلك كما كانت تفعل لبني زميلتي لملَّني كما ملَّها حبيبها ، وأقام علاقة مع أخرى ...) .

قلت : ولماذا فعلت ذلك ؟

قالت : لأشبع فيَّ غروري وكبري .

- وبعد .

- إن شيئاً مما توجَّسته لم يحدث فقد التقط قلبه الجريح وضمد جرحه وواصل طريقه الذي بدأ ، وأنا أنتظر أن يعود اليوم أو غداً على أكثر ، ولكنه لم يعد فعلمت إنه لن يعود .

فكَّرت أن أنتقم منه فقبلت الزواج من ثريٍّ في مثل سني مرتين، وبدأت مأساتي فقد كانت الهوة كبيرة بين من أحببته ورفضته ، وبين من أكرهه وتزوَّجته . وصارت حياتي سلسلة من الأحزان ...

قالت في نفسها بسخرية ممزوجة بمرارة (لم أتزوج ثرياً في مثل سني مرتين أيها الشاعر الكبير إنَّما تزوجت شاباً أفضل منك كيميائي خريج كلية العلوم ويعمل في شركة بترول يا موظف وزارة الثقافة ...) .

وما أشد حسرتي عندما كنت أتذكَّر أنني التي ضيعت سعادتي بيدي ، ولم أستطع أن أحطم هذا القيد إلا من عدة شهور بعدما فقدت في سبيله كلِّ شيء ، وترددت كثيراً قبل أن أذهب إلى

القلب الذي أحببت فهو آخر أمل لي في الحياة ، ثم ذهبت إليه ، وأنا مملوءة بالثقة بأنه سوف تتهلل أساريره ، وتجف دموعه ، وأجد بين ذراعيه حياتي التي لم أعشها ، ولكن يا لها من مفاجأة قاتلة فعندما رآني قال لي : من أنتِ ؟ وما قصتك ؟ مع أني أنا هو ، وقصته قصتي !!

– قفزت من مقعدي من الدهشة (أهذه التي تجلس أمامي هي تلك التي كانت غادة عصرها ، وأحلام الشباب ، ومنى الألباب؟ .. يا لها من مفاجأة ليعجز الكلام عن وصفها ، والعبارات عن حملها) .

جلست على مقعدي ، وأنا مطرق أنظر إليها فقالت : ها قد قصصت عليك قصتي ، وعرفت من الجاني ، فهل ستقتص لي كما وعدتني ؟

–(ما أقسى وقع هذه الكلمات عليَّ عندما قرأتها .. ظللت أبكي حتى تورمت عيناي وابتلت مناديلي .. كنت أكتم بكائي حتى لا تسمعه جدتي وتتهمني أني ما زالت على علاقة به ، وربما أخبرت والدي ، ووالدي صعيدي لا يعرف التفاهم في هذه الأمور.. لم أسترح إلا عندما أعدت القصة إلي زميلتي التي لا أدري طبيعة علاقته بها وكيف أقنعها بإعطائي القصة ؟ وقلت

لهـا : " قـصة زفـت ، وصـاحبها زفـت .. لـيس هنـاك شـيء اسـمه حـب .. هـذا كـلام فـارغ".. لكـن مـع ذلـك لا أتـذكَّر لمـاذا صـورت نسخة من القصة واحتفظت بها ...) .

بعد أن طوت القصة بغضب سيطر عليها إحساس إن نبوءته قد تحقَّقت ؛ فقد صار شاعراً كبيراً كما كان يحلم ، وتبدَّل حالها هي فصارت كَمٌّ مُهْمَل من الجميع ، وبدأت عليها علامات الشيخوخة: بياض الشعر ، وقصره ، ذبول الوجه وتجعُّده ، تقوس القدِّ الممشوق و...

انفجرت في البكاء أسى على الحال التي وصلت إليها .. كرهت نفسها وحياتها ، كرهت زوجها وأولادها .. كرهت كلَّ العالم .

-(لا بد أن أغيِّر حياتي .. أن أعيش لنفسي .. كل واحد لا يفكِّر إلا في نفسه .. لماذا عليّ أنا وحدي أن أفكِّر في الجميع، وأخدم الجميع ؟ ...)

قامت أحصت الأموال التي ادخرتها ، وقرَّرت أن تنفقها على نفسها(اعمل مثل صديقاتي .. جددن شبابهن .. ويبدون أصغر من أعمارهن كثيراً ...)

***

٢٠

أنفقت كثيراً على كريمات ووصفات نضارة البشرة وإزالة التجاعيد ، وتقويم الأسنان ، والرجيم ، والملابس .. وسط دهشة زوجها ، وأولادها .. ولكنها لم تعط أحداً فرصة الاعتراض .. قرَّرت وصمَّمت ونفَّذت .

لم يُعْجِب هذا كله زوجها ، وبدلاً من إثارة اهتمامه ، وإحياء حبه أثارت شكِّه ، وسخطه واعتراضاته .

ظنت نفسها نجحت عندما بدأ زوجها يفتش في تليفونها ، ويكثر الاتصال بها ، والاتصال بالأولاد والسؤال عنها .. لاحظت هذا ولكنها لم تظهر له ذلك ، وسعدت به في البداية ، ثم ما لبثت أن ضاقت به وملَّته .. فقد أضحى الجميع ينظر إليها بارتياب ويحصي عليها حركاتها .. وعندما حكت لبعض صديقاتها في النادي الذي بدأت تكثر من التردد عليه ، وكانت من قبل لا تذهب إليه إلا في المناسبات .. قلن لها ما دام هو يفتِّش وراءك فأكيد هو يخفي عنك أسراراً ، وعليك أن تفتِّشي وراءه أنت

أيضاً .. وذكرن لها قصصاً كثيرة تؤكد أن أغلب الرجال خائنون ، وأعينهم زائغة ، ولا أمان لهم .. وعلَّموها أسرار كشف خبايا زوجها ، وكيفية فكِّ شفرة التليفون وقراءة رسائله الخاصة ، بل واستعادة المحذوف منها .

وتعلَّمت كثيراً مما تقرأه على " فيس بوك " الذي أدمنت مشاهدته وأكثرت من صدقاتها عليه : أهل وأقارب ، وزميلات قدامى ، وجيران ، وصديقات النادي وأولادهن .. الوحيد الذي تردَّدت في إرسال طلب صداقة له هو أحمد .. رغم أنها بدأت تحسُّ في الفترة الأخيرة إحساساً غريباً .. تحسُّ أنه يعرف إنها تشتاق إليه ، وتتابع صفحته ، وتطَّلع على صوره ، وتقرأ ما يكتب ، بل بدأت تحسُّ أن كتاباته الأخيرة موجَّهة لها وإلا ما معنى أنه فجأة بدأ يتحدَّث عن سنوات حبهما ، ويستعرض صوره في تلك المرحلة تحديداً ، ويذكر أشعاره القديمة التي كتبها فيها .. سيطرت عليها رغبة جامحة في أن ترسل له طلب صداقة ورسالة على "الماسنجر" تعرِّفه فيها بنفسها...

جلستُ على مقعدي ، وأنا مُطْرِق أنظر إليها فقالت : ها قد قصصت عليك قصتي ، وعرفت من الجاني ، فهل ستقتص لي كما وعدتني .

– فابتسمتُ ابتسامة دافئة وقلتُ : ولكنكِ اقتصصت لنفسك ممن جنى عليك بمجيئك إلى هنا .

– قالت : كيف وهو مازال ماثل أمامي يبتسم .

– إن عدوك هو كبرياؤك وغرورك ، وقد حطمتيهما حين أتيت ؛ فلم يعد هناك جانٍ .

– وأنتَ ؟

– ما أنا إلا قضية في حياتك ، والزمن هو القاضي ، والجاني هو غرورك وكبرك ، والمجني عليه هو قلبك ونفسك . يجب أن تدركِ ذلك جيداً كما أدركته أنا من زمن بعيد ، وابدئي حياة جديدة اجعلي فيها للحب موضعاً بارزاً .

– والحب الذي بيننا ؟

– سيكون أكبر ، وأعمق .

– كيف ؟ وأنت تريدني أن أبدأ من جديد بقلب جديد ؟

– لأن الحب الذي تعنين سيكون صداقة ، والصداقة هي أسمى أنواع الحب ، وأرقى المشاعر الإنسانية .

أحسَّت إنها إن أرسلت له طلب صداقة فسيكون اعترافاً صريحاً بهزيمتها ، وانتصاره .. اعترافاً بفشلها ونجاحه (لا .. لا .. لن أجعله يشمت فيَّ .. سأجعله يحلم أن يراني ، ولن يراني ...)

ومع ذلك في أحيان كثيرة تفكِّر فيه ، وتشاهد صوره القديمة التي عرفته في زمنها ، وتقرأ أشعاره ، وتعرف أخباره ..

لاحظت أنه ما زال يحنُّ للماضي ويتمنَّى عودته ، ويذكر الحب الأول .. وهي متأكدة أنه إن أرسلت له طلب صداقة ستكون مفاجأة كبرى له عاش عمره يتمنَّى وقوعها (أخشى أن أتعلَّق به أكثر .. أو يتعلَّق هو بي .. ويراسلني .. ويطلب مقابلتي ورؤيتي.. وأن أرسل له صوري الخاصة .. وسأدخل في علاقة لا آمن عواقبها ..) .

تذكَّرت نصائح صديقاتها بالتفتيش في تليفون زوجها ، والاطلاع على رسائله الخاصة ، وأرقام هواتفه ، بالإضافة إلى مراقبة تصرفاته ومتابعة أحواله إلى غير ذلك مما تدركه النساء .

***

٢١

– لماذا كلُّ هذا التغيير ؟ أنا لم أطلب منكِ هذا .. أنا أحبكِ كما أنتِ .. أنتِ زوجتي ، وحبيبتي ، وأم أولادي ، ولولاك لتهدَّم هذا البيت على مَنْ فيه .

قالت وهي تبتسم : أزمة منتصف العمر .

– من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟!

– كل صديقاتي في النادي يتحدثن في هذا الموضوع .

– ومنذ متى تذهبين إلى النادي وتجلسين مع هؤلاء الفارغات ؟

– منذ صرت فارغة .

– لا أفهم .

– منذ أصبح كل واحد لا يهتم إلا بنفسه أنت في عملك ، ومحمد مع خطيبته ، ونهى مع التليفون ، وأصبحت أنا فارغة .. قلت أجلس مع الفارغات للأعرف كيف يقضين أوقاتهن ؟

– صديقاتك أم الإنترنت ؟

– الاثنان .

– وماذا قلن لك صديقاتك أيضاً ؟

قالت وهي تبتسم وترفع حاجبيها وتهز رأسها: قلن لي إن الواحدة لا بد أن تستعيد شبابها حتى لا ينظر زوجها لغيرها ؟

قال بسخرية : المرأة التي يتزوَّجها الرجل كفيلة أن تجعله يكره الجنس كله .

– وأنت تكره الجنس كله يا هشام ؟

– أنا أمزح يا حبيبتي .. لقد كبرنا على موضوع المراهقات العاطفية .. الإنسان لا يفكِّر إلا في بيته وزوجته وأولاده .

عندما ذهب إلى الحمام أمسكت تليفونه وحاولت فتحه ، فوجدته مُغْلَقاً بكلمة سر ، لم تسأله لأنها تعرف ردَّه (أنا أنسى تليفوني كثيراً ، وأخشى أن يقع في يد واحد ليس عنده ضمير ، يشاهد صورنا الخاصة ، وينقل تليفوناتكم .. وأنت تعلمين ماذا يمكن أن يفعل بها) .

بدأت تلاحظ حركة يده عند فتح التليفون ، وتجرِّب فتحه دون أن يراها ، حتى نجحت بعد عدة محاولات في فتحه بالفعل .

بعد أن تأكَّدت أنه نام أخذت التليفون ودخلت الحمام ، وبحثت في رسائله الخاصة كلها رسائل عادية من الأهل والأصدقاء ، لاحظت أن اسم " سعيد " على رأس قائمة الرسائل ومع ذلك

لا توجد هناك رسائل متبادلة ، ولا تتذكَّر أن هشاماً قد ذكر لها اسم سعيد هذا من قبل إلا سعيد ابن عمه الرجل الأمي البسيط .

عندما دخل ليستحم في الصباح جرَّبت أن تستعيد الرسائل المحذوفة لسعيد هذا ، ولكن الإجراءات المعقدة والطويلة وخوفها من خروج زوجها من الحمام فجأة لم تمكنها من إتمام عملية استعادة المحذوف .

***

٢٢

تناقشت مع صديقاتها حول موضوع ماذا لو عرفت الواحدة أن زوجها يعرف واحدة أخرى ماذا تفعل ؟

معظم صديقاتها أيدن الرأي القائل بوجوب المصارحة واتخاذ موقف حازم وصارم ، وتصعيد الموضوع ، وفضح الأمر حتى لا يعود إلى مثل هذا الأمر مرة ثانية .

وقالت إحداهن : لا تكوني ضابط مباحث يفتش ويبحث عن أدلة الاتهام والإدانة حتى لا يصير زوجك لصَاً يحاول الهرب من القيود والسجن .

– وماذا نفعل يا فيلسوفة زمانك !!

– كوني له زوجة ترعى شئون بيته وأولاده ، وحبيبة ترعى شئونه العاطفية والنفسية ، وصديقة تشاركه اهتماماته وهواياته وهمومه وأفراحه ...

– ما هذا كله !! وماذا عليه أن يكون هو إذن ؟ .. سي السيد ؟!

– إذا كنت له زوجة سيكون لك رفيقاً ، وإذا كنت له حبيبة سيكون لك عشيقاً ، وإذا كنت له صديقة سيكون لك شريكاً و...

– وماذا ..؟ كفى .. كفى .. أنت مثالية لا تعيشين الواقع .. وأين الصبر على كل ذلك ؟! .. هل تصدقين كلام من يسمون أنفسهم خبراء العلاقات الأسرية ومدربي التنمية البشرية الذين يصدِّعون أدمغتنا في الإعلام هذه الأيام ؟!!

أما هي فلم تبد رأياً وإن كانت في داخلها قد عقدت العزم (إذا ثبت أنه يعرف غيري ويحادثها فسأرسل طلب صداقة لأحمد .. صداقة بريئة .. هذا أبسط شيء أعمله لكي أعيش حياتي ، وأن أفعل ما يسعدني دون أن أفعل شيئاً مُحَرَّماً .. مجرَّد صداقة .. وحوارات بريئة .. هناك أسئلة أتمنَّى أن أعرف إجابتها منه .. تعبت كثيراً في التفكير فيها .. لماذا كفَّ عن المجيء لرؤيتي في الكلية ، أو الوقوف أمام بيتي ؟ .. نعم ردُّ فِعْلي على قصته كان قاسياً .. وقد حاول أن يكلِّمني بعدها ، وأنا الذي رفضت .. وكلما ضعفت مقاومتي كانت جدتي تشجِّعني وتقوِّيني .. حتى ماتت جدتي رحمها الله .. فحكيت لأشرف فانتهى الموضوع تماماً .. ثم خُطبتُ بعد ذلك لصلاح رحمه الله .. لا أدري هل كان يعلم أحمد بموضوع خطبتي .. أكيد كان يعلم وإلا لما كفَّ عن المجيء لرؤيتي .. أم أن لقاءه بأشرف هو الذي أغلق الموضوع نهائياً ؟ .. أريد أن أعرف .. لماذا لم يأت لرؤيتي في الكلية بعد موت

صلاح ؟! .. كانت هذه المرحلة أقسى مراحل حياتي على الإطلاق لم تؤثر عليَّ نفسيّاً فحسب بل أثرت عليَّ دراسياً فرسبت عاملين في الكلية ، وأنا التي كنت الأولى على مدرستي في الابتدائية ، ومن الفائقات في الإعدادية ، وحصلت على مجموع جيد في الثانوية .. وبعد أن جفَّت دموعي على صلاح كنت أتمنَّى أن يعود أحمد ليضمِّد جراحي وينسيني أحزاني لفقد جدتي ، وخطيبي .. لقد حاولت كثيراً عندما كنت أراه صدفة أن أُشْعِرَه أنـي في حاجة إليه وأن حبَّه ما زال يسكن قلبي بل زاد ليشغل كل كياني ، لقد تجسَّدت كلُّ أحلامي فيه في هذه المرحلة .. كنت عندما أراه صدفة أنظر إليه وأبتسم ، وأطيل النظر إليه ؛ لأحثُّه على إعادة التحدُّث معي .. لو كان قد فعل لما تردَّدت لحظة في إجابته .. ربما كان خائفاً بسبب محاولاته السابقة .. كان هذا في حياة جدتي أما في هذه المرحلة فالأمر كان مختلفاً تماماً .. ومن يدريه هو بهذا التغيير .. ألم يقرأ ذلك في نظراتي ، ومحاولات لفت انتباهه؟! .. قد كنتِ من قبل تنظرين إليه فإذا حاول أن يكلمكِ تتركينه .. أكبر خطأ ارتكبته هو أني حكيت لأشرف ...) سمعتْ صوت باب الحمام يغلق فزعت .. حاولت استعادة ما كانت تفكِّر فيه .. فشلت .. وأخيراً استسلمت للنوم .

***

٢٣

– ماذا حدث يا سها لم أصدِّق ما حكيتيه لي في التليفون ؟

– الذي حدث ما ترينه بعينك يا ماما .

كان وجهها متورماً من أثر الضرب ، وبه عدة جروح متوسطة .

– ما الذي أوصل الأمور إلى هذا الحد ؟

– طلبتُ منه الطلاق .

– ما الجديد في ذلك أنت طلبت منه ذلك كثيراً من قبل ؟

– هذه المرة أصررت عليه ، وقلت له : لو كنت رجلاً طلِّقني .

– هذه الكلمة تستفز الرجال وتثير غضبهم .. وماذا فعل بعد ذلك؟

– غضب .. ثار .. وسب ولعن .. ثم انهال عليَّ ضرباً ...

– أكيد هو متمسِّك بك ، ويراعي شعور أبيك .

– لا يا ماما هو يخاف من مؤخر الصداق الكبير الذي كتبه بابا عليه ، بل يطمع في الحصول على مبلغ كبير نظير الطلاق .. ألم أقل لك إنه ...

- والحل يا سها...

- أنـا هددَّتـه إن لـم يطلقنـي بالحـسنى فـسوف أخلعـه .. فجـن جنونه...

- لا حول ولا قوة إلا بـالله .. هذه الزيجـة الثانيـة لك يا سـها .. وكلام الناس كثير ...

صاحت سها بغضب : أنت لا تعلمين إلى أي حدٍّ وصلت إليه الحياة معه .. الموت أهون من البقاء معه لحظة واحدة .. أنا قرَّرت وانتهيت وليحدث ما يحدث .. لقد اتصلت بالأستاذ عقباوي وطلبت منه رفع قضية خُلْع .

- قبل أن تستأذني من أبيك ؟

- بابا هو السبب في كلِّ ما حدث لي هو الذي أجبرني على هذا الزواج .

- من أجل أن يحل المشكلة القديمة .

- مشكلتي مع خالد انتهت ، وحكمت المحكمة بفسخ العقد والموضوع انتهى .. لماذا هذا الإصرار على زواجي بهذه السرعة؟!

- كلام الناس .. أنت تعرفين كلام الناس ..

- الناس لا تكفُّ عن الكلام .. يتكلَّمون عن لبس البنت غير المناسب وخروجها المتكرِّر .. وبعد أن تتخرَّج يتكلَّمون عن سبب

عدم زواجها حتى الآن .. وإذا تزوَّجت يتكلَّمون عن تأخُّر الحَمْل، وإن أنجبت بنات يتكلَّمون عن الولد ، وإن طُلِّقت تكلَّموا عليها وألقوا عليها مسئولية الطلاق ووضعوها تحت الوصاية .. الناس لا تكفُّ عن الكلام أبداً يا ماما .. لا يهمهم راحة غيرهم ، ولا يتركون أحداً في حاله .

– لكننا لا نعيش في صحراء يا سها نحن نعيش وسط هؤلاء الناس .. ولا يصح أن نتجاهل كلامهم .

– وماذا كانت نتيجة سماعنا كلام الناس زوَّجني بابا هذا الزواج حتى يكفَّ الناس عن الكلام .. ومع ذلك لم يكفُّوا ، ولن يكفُّوا .. الناس يا ماما لا عمل لها إلا الكلام .. أنا سأسكن في شقة بمفردي ، وأهتم بعملي وحياتي الخاصة .

– بيت أبوك مفتوح يا سها .. أبوك لن يرضى .. كفى ما جرى له هل تريدين أن تقضي عليه ؟!

– أنا لا أريد شيئاً من أحد .. أنا أعمل والحمد وراتبي يكفيني لأعيش دون الحاجة لأحد .

– من كان يصدِّق يا سها أن يحدث لك كلَّ ما حدث ؟! .. كان آخر شيء أتوقعه ...

– نصيب يا ماما .

أكملت حنان كلامها كأنها لم تسمع سها: لم نقصِّر في تربيتك : أحسن أكل وشرب ، ومدارس ولبس .. لا أدري من السبب فيما جرى لك؟

ثم قالت بعنف وغضب وقد أمسكت بذراعي سها وهي تهزُّها : هل أنا السبب ؟ .. لم أهمل في تربيتك أنا وأبوك كنَّا حازمين أشد الحزم : هذا عيب .. هذا حرام .. لا تكلِّمي أولاد .. لا تلعبي معهم عيب .. الحب في هذه المرحلة مراهقة لن تدوم .. سأقول لأبيك إذا فعلت هذا ثانية .. جربنا معك كل الوسائل حتى السب واللعن والضرب ...

– قلت لك نصيب يا أمي ، ثم أني لم أتركب جريمة .. كل البنات كانت تعمل ما أعمله ...

قالت حنان وقد استبدَّ بها الغضب : كلُّ البنات يقمن علاقات مع أولاد ، ويخرجن معهم ، ويتزوَّجن عرفيّاً من وراء أهلهن ؟!

– كنت أحبه ، ولم أكن ...

– حب ؟! حب ماذا الذي يجعل الواحدة تفعل ما فعلتيه ؟ ألم نكن بنات في سنِّك ، ومررنا بكلِّ ما مررت به ؟! لكن كُنَّا مُؤدبات ، ومحترمات لم نكن نفكِّر إلا في مذاكرتنا ، وأهلنا .

- كفى يا ماما .. أنا سمعت منك هذا الكلام كثيراً .. أنا لم أعد أحتمل .. يكفي المصائب التي أنا فيها .

- هذه المصائب أنت السبب فيها ...

قالت وهي تصرخ وتبكي : لو كنت حكيتي لي من البداية .. لو كنت سمعتي كلامي ونصائحي لو ...

- قلت لك ألف مرة كنت خائفة أن تضربيني وتمنعيني من الخروج وتقولي لبابا ...

- وهل الضرب والحبس أتى بنتيجة معك ؟!

- اهدئي يا أمي .. حرام عليك نفسك .

***

٢٤

بعدما أنهت أعمال المنزل ، أمسكت بالتليفون ، ثم ألقته مرة ثانية، فكَّرت أن تذهب إلى النادي ولكنها تراجعت ، سيطر عليها إحساس أن تبقى في البيت اليوم (وماذا أفعل ؟) .

قلَّبت قنوات التليفزيون (كل المسلسلات والأفلام معادة) .

– نهى أنت لا تتركين التليفون من يدك أبداً ؟!

– نحن في إجازة يا ماما .. ماذا أفعل ؟

– ساعديني في أعمال البيت ؟

– ألم أغسل لك الأطباق اليوم ، ونشرت الغسيل معك أمس ؟!

– أنت تحفظين كل ما تعملينه ؟!

– تعالي اجلسي معي .

– بعد أن أنتهي من مشاهدة هذا الفيلم .. فيلم السقَّا الجديد المعروض في السينما الآن !

حاولت النوم ، تقلَّبت في السرير .. نهضت تأمَّلت وجهها في المرآة .. غسلت وجهها ، وصففت شعرها ، وعادت تنظر في المرآة (كبرتِ يا حنان .. كنت جميلة .. كنت أجمل بنت في الشارع) .

تمنَّتْ لو أنَّ الزمان عاد ، وعادت شابة جميلة كما كانت .. بحثت عن ألبوم الصور حتى وجدته في أحد أدراج التسريحة .

استعرضت ألبوم الصور : صور فرحها (كنت جميلة وشابة .. وهشام كان جميلاً وشاباً .. أمي كانت تقريباً في مثل سني الآن قبل أمراض : ضغط الدم ، والسكر ، والروماتيزم .. عانت كثيراً في تربيتنا لم أقدِّر معاناتها إلا عندما مررت بنفس ظروفها .. لا.. ظروفي كانت أصعب ؛ كُنَّا أطفالاً مؤدبين .. نسمع الكلام ، ونطيع الأوامر ، وليس لنا طلبات .. لقد تحمَّلتُ مسئولية البيت مع أمي : الطبخ ، والغسيل على الغسالة العادية ، والكنس قبل المكنسة الكهربائية ، الشيء الوحيد الذي كانت تقوم به أمي كاملاً الذهاب إلى السوق وشراء الخضراوات .. كانت أياماً جميلة ؛ لا مسئولية ، ولا هم ...).

صورها في السويس (أجمل سنوات زواجي سنوات السويس ؛ الأطفال كانوا ما يزالون صغاراً ومشاكلهم كانت قليلة .. تعبٌ نَعَمْ لكنه بَدَنِي ، وكان هشام ، الشهادة لله يساعدني كثيراً في تربية الأولاد : دكاترة ، ومذاكرة ، وملاعبة ، وفُسَح ...)

رأت صور أبنائها (سها أول فرحتي .. قلبي ينفطر عليها ... محمد حبيب أبيه والذي منحنا كنية " أم ، وأبو محمد " .. نهى أشبه أبنائي بي شكلاً وطبعاً) .

صور المصايف (هذه الصور كانت في السويس في شاطئ "ركس" ، وهذه أيضاً ، وهذه ، هذه كانت في الإسكندرية في "ميامي" كان الأولاد قد كبروا بعض الشيء ، وهذه في رأس البر في فندق الجوهرة ، وهذه في السويس في العين السخنة في قرية "لاسيرينا" كان الأولاد قد كبروا .. وهذه .. وهذه أظن في رأس البر أو الإسكندرية .. أيام جميلة .. أكرمك الله يا هشام كان كريماً معي ومع أولاده ...)

صور عائلية متنوِّعة وقفت طويلاً أمام صورة لها هي وهشام في شهر العسل (ليت هذه الأيام تعود .. كنت شابة جميلة ، وكانت الحياة جميلة .. كانت أسعد أيام حياتي) .

ثم راحت في النوم والألبوم بجوارها .

***

٢٥

- كيف حدث هذا ؟!

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون ...

- حادثة ، أم مرض خبيث كان عندها ، أم ماذا ؟ لم يكن يبدو عليها أي مرض .

- في الفترة الأخيرة كانت حزينة ، وكثيرة الشكوى !!

- لا بد أن نذهب للعزاء اليوم ...

- أنا لا أصدق .. ناريمان !!! إنها أصغرنا سناً ...

- ولكنها كانت تبدو أكبر مِنَّا سنّاً بكثير ...

- كانت تفتش وراء المشاكل ، ونصحتها كثيراً أن تبعد عنها وتعيش حياتها ، وأن تتسامح ...

- تذكرن آخر مرة كانت معنا هنا .

- كانت تُعلِّم حنان كيف تستعيد رسائل زوجها المحذوفة ...

عندما عادت من العزاء ، الذي سمعت فيه قصصاً كثيرة عن الموت ، والمرض ، تابعت صفحتها على في الفيس التي امتلأ معظمها فجأة بآيات قرآنية ، ومقاطع دينية ، وأدعية مسموعة ومقروءة .. أحسَّت أن الحياة أتفه من أن نضيعها في المشاكل والصراعات والكلام الفارغ ، وقرَّرت أن تكون أكثر التزاماً وتمسكاً بأوامر الدين ومشاهدة برامجه وسماع شيوخه (ماذا لو كنت أنا الذي مت لا ناريمان كيف كنت أقابل الله ؟! .. الحمد لله أن هذا لم يحدث .. الفترة الأخيرة زلزلت حياتي كلها " اللهم اشرح لي صدري ويسِّر لي أمري ") .

***

٢٦

جاء رمضان فقرَّرت أن تجعله بداية لحياة جديدة : صوم ، وصلاة ، وقراءة قرآن ، وحضور الجلسات الدينية ، وصلاة التراويح ، والصدقات ...

توقفت عن وضع المكياج ، ولبس ما لا يليق ، والتفكير في الماضي .

كما توقَّفت عن " الفيس بوك " ، والذهاب للنادي ، واتَّخذت صداقات جديدة من الأخوات الملتزمات .

أحسَّت براحة نفسيَّة ، ونقاء روحي ذكَّرها ذلك بالفترة التي تلت موت جدتها تلك الفترة التي لبست فيها الحجاب وتوقَّفت عن وضع المكياج والتزمت بالصلاة وقراءة القرآن (للأسف لم تدم هذه الفترة طويلاً فعدت للمكياج ثانية مع الحجاب ، وإلى عدم الانتظام في الصلاة مع الرغبة في الانتظام فيها ...)

- أنا أريد أن أذهب للعمرة يا هشام .

- ما الذي فكَّرك بهذا الموضوع ؟

- نحن مقصِّرون في كثير من الواجبات الدينية ، نذهب إلى العمرة لعل الله يرفع عنا البلاء .

- إن شاء الله يا حبيبتي ..

ثم قال وهو يضحك : على الأقل الأموال التي ننفقها في العمرة أفضل من إنفاقها على تبعات تخطي أزمة منتصف العمر .

***

٢٧

تردَّدت كثيراً قبل أن تفتح صفحته (هل هذا أحمد الذي كنت أحلم طوال عمري أن أراه .. تغيَّر كثيراً .. أحسُّ أنه شخص آخر لا أعرفه .. وما هذه التعليقات التي يكتبها ؟! هل هذا كلام رجل محترم ؟!

ليتني ما وجدت صفحته ، ولا رأيت صوره الحديثة ، وتعليقاته السخيفة التي أفسدت عليَّ الذكريات الجميلة التي كنت أحتفظ بها...)

أغلقت صفحته ، واتصلت بهشام :

- كيف حالك يا حبيبي ؟

- الحمد لله .. خيراً هل حدث شيء ؟

- لا .. لم يحدث شيء كلنا بخير والحمد لله .

- لماذا تتصلين بي في هذا الوقت ؟

- لأطمئن عليك .

ثم قالت بدلال : لقد أوحشتني .

– ليس هذا وقته أنا ما زلت في العمل .

– عندما تعود سأكلمك مرة ثانية .

– لماذا ؟ هل هناك شيء ؟ قولي ...

– لا .. والله ليس هناك شيء .. أنت أوحشتني ، وأحببت أن أسمع صوتك .

– أنت لك تصرفات عجيبة هذه الأيام .

قالت وهي تضحك : ألم أقل لك أزمة منتصف العمر !!

ابتسم وقال : نناقش هذا الموضوع يوم الخميس إن شاء الله .

قالت بدلال : ألا أسمع صوتك إلا يوم الخميس ؟!

– إذا لم يكن وراءك شيء فأنا ورائي عمل .. يوم الخميس إن شاء الله .. سلام .

***

٢٨

لم تُذَكِّرها معالم الطريق بشيء وهي ذاهبة لزيارة أمها المريضة .

- كيف حالك يا أمي ؟

- الحمد لله .. الحمد لله .. منذ أكثر من شهرين لم أرك .

- أنت تعرفين الظروف يا ماما .. المهم كيف حالك ؟ وما أخبار الضغط الآن ؟

- نزل والحمد لله .. أنا كنت لا أستطيع أن أقف ، ولا أمشي .. لكن الحمد لله .

- والسكر ؟

- الحمد لله .. كيف حال أولادك ؟ هل صحيح محمد ترك خطيبته ؟

- نعم .. كما قلت لك في التليفون .. اكتشف أنها لا تناسبه .. وأنه تعجَّل في خطبتها ..

- ألم تكن زميلته في الكلية ؟

- والوقت الذي لا يراها فيه يتصل بها تليفونيّا .

- فماذا حدث إذن ؟

- أبداً يقول : إنه اكتشف بعد الخطوبة وكثرة زيارتها في بيتها أن البيئة التي تعيش فيها غير مناسبة ...

- المهم البنت .

- يقول : إن البنت متأثرة ببيئتها .

- والشَّبْكَة ؟

- سيذهب مع هشام يوم الجمعة ويتفاهم مع أبيها في هذا الموضوع .

- أنت محسودة يا حنان كل أقاربنا يحسدونك .

- يحسدوني على ماذا ؟

- تزوَّجت بزوج طيب وكريم يقضي لك كل طلباتك ...

- الحمد لله .

- أولادك بسم الله ما شاء الله .. ومحمد سوف يتزوج أحسن البنات .

- يا رب يا أمي .

وهي في طريق العودة لم يلفت نظرها إلا أطلال البيوت القديمة ، وانتشار القُمَامة وكثرة الذباب .

***

٢٩

– تعبت يا حنان ، والصحة لم تَعُد كما كانت ، وموضوع القلب زاد الطين بلَّة .

– ألف سلامة عليك يا حبيبي .. أنت بخير .. ومازلت شاباً ، أمي قالت لي آخرة مرَّة أن كلَّ الناس يحسدوني عليك .

– أنت يا حبيبتي أجمل نعم الله عليَّ .. تعبتِ معي كثيراً وتحمَّلت معي كثيراً .

– كنت أريد أن أحدثك في موضوع مهم .

– خير اللهم اجعله خيراً .

– خير إن شاء الله .. نهى .

قال بانفعال : ما لها هي الأخرى ؟! .. ألا يكفي مصائب سها ؟!

– خير إن شاء الله لا تقلق .. نهى لم تعد صغيرة ، وهي تمر بمرحلة حرجة كما تعلم ...

– قولي لي مباشرة بلا لف ولا دوران ماذا فعلت ، وأنا أكسِّر دماغها ...

– أنا أريد أن أكلمك بخصوص تكسير الدماغ هذا ؛ فأنا لاحظت أنك تقسو عليها ، ولا تجلس معها وتستمع إليها ، ولا تخرج معها.. البنت في هذه المرحلة تحتاج لحنان الأب ربما أكثر من الأم ...

– أنا أقسو عليها حتى لا تعمل ما عملته سها ، اكسر للبنت ضلع ...

– يا هشام هذا كلام الجهلة ...

– احترمي نفسك يا حنان أنا لست جاهلاً ...

قالت وهي تضحك : أتعرف قصة البنت ورائحة الطعمية ؟!

– وأين سمعت هذه الحكاية ؟ في النت أم في النادي أم من مشايخك الجدد ؟

– لا .. هذه قصة يقولها علماء النفس ...

– علماء النفس يقولون رائحة طعمية ؟!!

– اسمع الحكاية أولاً ثم اسخر كما شئت .

– قولي منك نستفيد .

– كانت هناك بنت عائدة من المدرسة ، وكانت جائعة جداً فلم تأكل شيئاً لأنها استيقظت متأخرة ولبست بسرعة وخرجت ، المهم وهي عائدة من المدرسة مرَّت بمطعم يقلي طعمية شمت رائحة الطعمية وسال لعابها ، لكن لم يمنعها من شراء الطعمية إلا

تذكرها نصائح أمها ألا تأكل شيئاً من الشارع ، وما تحب أكله يمكن عمل أفضل منه في البيت ...

– المهم .

– المهم إنها عادت إلى البيت لتجد أمها قد طبخت لها ..

قالت حنان وهي تضحك : ما هي أحب كلة تحبها من يدي ؟

– ما دخل هذا في حكاية رائحة الطعمية ؟

– قل لي وسوف تعرف بعد ذلك ؟

– محشي ورق العنب بشربة البط .

– أمها كانت طابخة محشي ورق عنب بشربة البط ، ومحمرة البطة بالخلطة في الفرن .. أكلت البنت حتى شبعت ثم نزلت لأن عندها درس ، ومرَّت على نفس المطعم وشمت رائحة الطعمية .. تُرى ماذا كان شعورها ؟

– ومن يدريني ؟!

– كان شعورها على النقيض من المرة السابقة فعندما شمَّت الرائحة شعرت بالغثيان والرغبة في القيء فأمسكت أنفها وجرت بسرعة .

– ما علاقة هذه الحكاية بموضوع نهى الذي كنت تتحدثين فيه ؟

– فكِّر ، وإذا غلب حمارك فسوف أخبرك ؟

– ما هذا الكلام الفارغ ، إما أن تقولي وإما أن تتركيني أنام ؟

***

٣٠

– ما رأيك في هذه الفسحة يا سها ؟

– جميلة يا ماما .. وإن كنت أفضل "ماجيك لاند" .

– هذه المرة استجبنا لطلب نهى ، والمرة القادمة إن شاء الله أنت التي ستختارين المكان كما تشائين .

قالت سها: أنت محظوظة يا نهى ، ماما تدللك كثيراً .

– ألم أدللك أنت يا سها؟! .. أنت أول فرحتي ..

– هذا عندما كنت طفلة ليس على الحجر غيري ، ولكن بعد ذلك، تحوَّل التدليل إلى سبٍّ ولعن وضرب ..

– ظروفك كانت هكذا ، وكنا خائفين عليك يا سها .

– وظروف نهى ؟

– نهى آخر العنقود ، لم يعد ورائي شيء سواها .

ذهبت سها لتلعب لعبة الصاروخ ؛ فقالت حنان لنهى : ما أخبار الجامعة يا نهى ؟

– الحمد لله يا ماما .

- وأخبار تامر ؟

- تامر .. تامر مَنْ ؟

- تامر حبيب القلب ؟

ضحكت نهى وقالت : أنت مازلت تذكرين هذا الموضوع يا ماما.. هذا موضوع انتهى من زمان .

- كيف انتهى ؟

- أبداً كلية الهندسة مثل الفريك لا تحب شريكاً .

- قولي الحقيقة يا نهى .. ألسنا صديقتين ؟

- والله يا ماما لم أره منذ دخلت الجامعة .

- وزملاء الهندسة أليس فيهم فارس أحلام جديد .

- يا ماما قلت لك كثيراً ليس عندي وقت للتفكير في هذه المواضيع ، وأنا أعطيك تقريراً كل يوم بما جرى منذ أن أخرج حتى أعود إذا لم تخرجي معي فلماذا هذه الأسئلة ؟!

- ليست أسئلة يا حبيبتي إنها دردشة بين صديقتين ، وأنا أحب أن أطمئن عليك أولاً بأول .

- اطمئني يا أماما إذا حدث شيء فستكونين أول من يعرف .. أنت صديقتي وحبيبتي يا ماما .

- أنا أعرف ذلك يا حبيبتي وإن شاء الله سأجعل أباك يشتري لك الكمبيوتر الجديد الذي تريدينه .

- واللبس الذي أريتك إياه في " مول " مصر الجديدة .

- لم أنس يا حبيبتي ، ليس اللبس فقط ، إنما حقيبة وحذاء أيضاً...

- أنا أحبك يا ماما ، يا أجمل أم في الدنيا !

- أقول لك مفاجأة سنمضي مع بابا شهراً كاملاً في السويس في الإجازة .

- صحيح يا أمي .. أنا أحب السويس جداً لي فيها ذكريات جميلة ، وأنا صغيرة ، وأحب قرية " كورنادو " التي ذهبنا إليها آخر مرة .

جاءت سها مجهدة مُصْفَرَّة الوجه قالت لها حنان : ألم أحذِّرك من لعبة الصاروخ هذه ، وقلت لك إنها خطرة ، ولكنك لم تسمعي الكلام ، عنيدة أنت يا سها.

- أنا أحب المغامرة .

- المغامرة التي تعرضنا للخطر مقامرة يا سها.

- دعك من موضوع المغامرة والمقامرة هذا وقولي لي عم كنتما تتحدثان ؟

- كنت أقول لنهى إننا سنمضي شهراً كاملاً في السويس عند بابا.

- شهر كثير جداً ، أنا لن أمضي معكم أكثر من أسبوع ؛ فصاحب العمل لن يسمح لي بالغياب أكثر من هذا .

- أنا لا أدري ما الذي يعجبك في هذا العمل .. بائعة في محل.. ألم يعرض أبوك عليك وظيفة محترمة في الشركة التي يعمل بها؟!

- أنا لا أحب قيود الوظيفة ، ولا الجلوس على مكتب .. أنا أحب الحرية ..

- تنقلك كل يوم في عمل مختلف تُعِدِّينَه حرية ؟!

- جربي الاستقرار يا سها .. جربي أن تتحمَّلي المسئولية .. جربي الالتزام ، والله لن تندمي ..

قالت بسخرية : أي التزام تتحدثين عنه يا ماما ؟! .. أن ألبس النقاب ، وأعيش جارية في بيت رجل يستعبدني ...

- أنا لم أقل ذلك يا سها .. أنا أقصد الالتزام بالمعنى المطلق بمعنى " إنَّ لربِّكَ عليك حقًا ، وإنَّ لِنَفسكَ عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقّا ، فأعْطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ " .

- أنا غيرك يا ماما أنا أحب الحرية ، ولا أحب القيود ...

- الحرية مسئولية ، وليست انفلاتاً .

قالت نهى : يا سها لا توجد حرية مطلقة ، الحرية مسئولية كما قالت ماما ، نحن نعيش في مجتمع له عاداته وتقاليده ، ولنا دين له حرماته ...

– منذ متى نزلت عليك الحكمة هذه يا نهى ، ألم تكوني لا تفارقين التليفون ليل نهار ؟!

– هذه مرحلة وانتهت .. أما الآن ...

– أما الآن فقد أصبحت أنت وماما صديقتين .. ابقيا أنتما وماما هنا ، أنا سأذهب لألعب لعبة الموت ...

قالت حنان فزعة : لعبة ماذا ؟ لعبة الموت !! .. تعالي يا سها .. انتظري .. انتظري .

قالت نهى : لا تقلقي يا ماما .. لعبة الموت هي ركوب قطار يسمى قطار الموت .

– ولكنها أكيد لعبة خطيرة وإلا ما سموها لعبة الموت .. أنا خائفة عليها ..

– اتركيها يا ماما .. دعيها تجرِّب .

– أما يكفيها تجريب ؟

***

٣١

قـال هـشام وهـو يـضحك : هـذه أغلـى قريـة سـياحية فـي العـين الـسخنة، وكنـت أريـد أن آخـذكم إلـى " الكبـانون" حيـث كنَّـا نـذهب كثيراً وأنتم صغار .

قالت حنان : ليتك أخذتنا إليها ، أنا لي فيها ذكريات جميلة .

– لقد تغيَّرت المنطقة كثيراً الآن .. لم تعد كما كنا نذهب إليها في التـسعينيات .. الآن كلهـا نـاموس وحـشرات بـسبب عـدم توصـيل شبكة صرف صحي إليها ، لم تعد مصيفاً مناسباً .. الآن هجرها الناس إلى قرى وشواطئ العين السخنة .

قالت حنان : كل شيء يتغيَّر ولا يبقى على حالة .

قالـت سـها: أنـا أحـب قريـة " كورنـادو " التـي ذهبنـا إليهـا العـام الماضي .

قالت نهى : لا .. قرية " "لاسيرينا" أجمل كثيراً .

– تذكرين شاطئ " ركس " يا حنان .

– كان شاطئاً جميلاً ، وكبيراً .. كنا نذهب إليه كثيراً .

– لم يتبق منه غير أمتار قليلة فقط ، ولا تستطيعين أن تصلي إليه إلا عن طريق المرور بسور الكورنيش الجديد.

قالت حنان : كنت أتمنى أن يكون محمد معنا اليوم ؟

هشام : ادع له أن يوفِّقه الله تعالى في عمله ويصبِّره على الغُربة.

قالت نهى : لا تقلقوا على محمد .. هو يحب السفر كان يسعى له منذ أن تخرَّج .

– أنا قلت له سنتين فقط حتى يتمكَّن من عمل المشروع الذي يريد عمله .

قالت نهى وهي تضحك : لا أدري كيف أعيش من غير المشاجرة مع محمد كل ساعة .

قال هشام : شعور جميل أن أجلس مع عائلتي كبقية الناس .

قالت حنان : ما رأيك يا هشام في أن تنتقل إلى فرع الشركة الإداري في القاهرة ، وتبقى بيننا ؟

– كلها كذا سنة ، وسأخرج على المعاش يا حنان وأبقى بينكم .

قالت نهى : أطال الله عمرك يا أبي ، ابق في السويس على أن نأتي كل سنة نمضي معك الإجازة الصيفية .

– هذا يسعدني يا حبيبتي ، أنا أعيش هنا بمفردي ...

ثم قال مازحاً : لدرجة أني فكَّرت أن أتزوج .

قالت حنان : أنا لن أعود إلى القاهرة ، وسأبقى معك هنا .

– ومن يبقى مع سها ، ونهى ؟

قالت مازحة : سأزوجهما ، وأتفرَّغ لك .

صاحت نهى : أنا لا أريد أن أتزوج الآن .

قال هشام : وما رأيك يا سها ؟

– في أي شيء يا بابا ؟

– في الزواج ؟

– زاوج من ؟

– لا .. أنت لست معنا .

قالت حنان : أبوك يريد أن يتزوج .

– كل إنسان حر فيما يفعل .

صاح هشام : سها موافقة ، لم يبق أمامي سوى نهى .

– وأنا لا رأي لي !! رأيي أنا أهم رأي .

قال هشام وهو يضحك : أنا أعرف رأيك .. أنت تحبين لي الخير يا حنان .. كما أنك تعرفين أزمة منتصف العمر .

– منتصف عمر ماذا يا هشام قل أزمة نهاية العمر .. أنسيت كم عمرك الآن ؟

ضحك الجميع إلا سها .

وفـي المساء كانـت المفاجـأة أن عمـل هـشام حفلـة صـغيرة ، وقـدِّم لحنان دبلة وخاتماً جديدين وألبسهما لها ، وهو يقول يا رب يكونان مقاس أصبعيك ؛ فقد اجتهدت أن يكون مقاسـهما مضبوطاً ، فلما دخلا في أصبعي حنان انشرح صدرها ، ورقص قلبها فرحاً وقالت وهـي تـضحك : مقـاس إصـبعي بالـضبط شـكراً لـك يـا حبيبـي ، وعنـدما قرأت الفـاتورة قبَّلـت وجنتـي هـشام بحـب فلـن تـضطر بعـد اليوم أن تضعها في حافظتها القديمة .

قال هشام : أعرفتم الآن من التـي كنـت أريـد أن أتزوجها وحدثتكم عنها صباح اليوم ؟

ضـحك الجميـع وحـضنت نهـى أمهـا وأباهـا وقبَّلتهمـا ، أمـا سـها فوقفت وحيدة تفكِّر في الدوافع التي جعلت أباها يفعل ما فعل .

***